

روح القرآن الكريم
تفسير جزء
والذاريات
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره
توزيع
دار العلم للملايين

روح القرآن الكريم

تفسير جزء

وَالذَّارِيَاتِ

الجزء السابع والعشرون

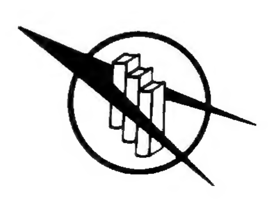
بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com



الطبعة الخامسة

أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢



لفضيلة قاضي الشرع الشريف
الشيخ حسين يوسف غزال

الحمد لله والصلاة والسلام على هادينا محمد رسول الله .

« من أراد أن يخاطبه الله فليقرأ القرآن » .

بهذا الإيحاء يشعر المؤمن عندما يتلو آيات الله أو يسمعها تتردد بكرة وأصيلاً ، فيخالجه الشعور بالخشية تسري في عروقه ، وبالرهبة تأخذ عليه مجامع قلبه ، قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ فيستجيب لأوامر الله بنفس راضية وقلب مطمئن .

وهذا الجزء من القرآن « والذاريات » فيه إطلاق النظر في الكون الفسيح يستخلص منه العبرة ، وتدعو آياته إلى تسريح الفكر بمشاهد العالم العلوي ، ليعود المؤمن منها محمّلاً بثمار المعرفة ، متسربلاً برداء اليقين ، شاهداً على عظمة الخالق ببديع خلقه ، وعظيم صنعه ، وفي هذا يقول تعالى في سورة الواقعة : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ . ويقول سبحانه في سورة الذاريات : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ .

تستوقفنا هذه الآيات بإيحائها الكبير ، ومدلولها البعيد على عظمة الكون وما يحتويه من ملايين الملايين من النجوم ، تُعلن ذلك في وقت كان فيه علم الفلك في طور الطفولة .

ولا تقتصر آيات القرآن في الدعوة إلى النظر في العالم العلوي بل تدعو الإنسان إلى النظر في الأرض وما تحتويه من عجائب الخلق ، وكذلك النظر في جسم الإنسان وما يحتويه من أسرار الخلقة ، كل ذلك ليزداد الإنسان إيماناً بخالقه ، وفي هذا يقول تعالى في سورة الذاريات : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

ولقد أحسن المؤلف الكريم الأستاذ عفيف طبارة وهو من تستوقفه مثل هذه الآيات الداعية للتأمل في خلق الإنسان والكون فأعطاها ما تستحق من تنويه وتعليق ، لافتاً النظر إلى أسرارها وإعجازها ودلالتها على أن هذا القرآن وحي إلّهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الجزء من القرآن أكثره مكي « أي نزلت آياته بمكة » والآيات المكية تأخذ طابع غرس العقيدة في النفوس ، وتثبيت الإيمان في القلوب ، وذلك بلفت النظر إلى الكون ودلالته على عظمة الخالق ، أو بالترغيب والترهيب بذكر ما أعد الله للمؤمنين المتقين من نعيم ، وما أعد للكافرين العاصين من عذاب أليم ، كما نرى في سورتي الواقعة والطور ، أو باستعراض أحوال الأمم الغابرة التي عصت ربها ، وكذبت رسلها ، فأصابها العذاب والهلاك كما نرى في سورة القمر .

وفي سورة الطور إثبات لنبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي إلّهي ، وذلك بتحدي العرب الذين ينكرون نبوته بأن يأتوا بمثل هذا القرآن إذا كان من تأليف محمد ﷺ كما يدّعون وفي هذا يقول تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

وفي سورة الذاريات يبين الله الغاية من خلقه للإنس والجن بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ وهنا يجول المؤلف في أسرار العبادة ومراميها ، وأثرها في سلوك الإنسان وسكينة النفس .

وبعد لا نستطيع في كلمة موجزة أن نستعرض كل ما في هذا الجزء من روعة وعظمة فهذا ما ستجده أخي القارىء عند قراءتك له بأسلوب مؤلفه الذي عودنا على طريقته المحببة من السهولة والإيضاح ، فيقبل عليه الجمهور بشغف وشوق لِمَا اشتمل عليه من تبويب وغزارة مادة ، وهو بهذا يكمل الجزء الرابع من تفسير القرآن .

والله أسأل أن ينتفع به جمهورنا المسلم، ويقبل عليه بقلبه وروحه فيجد فيه الضياء للقلب ، والنعيم للروح ، ﴿ إِنَّ هذا القُرآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّر المؤْمِنينَ الذين يَعْمَلُون الصَّالِحَات أنَّ لَهُمْ أجْراً كبيراً ﴾ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾
وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾
قُتِلَ الْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ

شرح المفردات

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً : قَسَمٌ بالرياح التي تفرق الأشياء تفريقاً .

فَالحَامِلاَتِ وِقْراً : قَسَمٌ بالسحب الحاملة ثقلاً من الماء .

فَالجَارِيَاتِ يُسْراً : قَسَمٌ بالسفن تجري على الماء جرياً سهلاً .

فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً : قَسَمٌ بالملائكة التي تقسّم الأمور بين الخلق على نحو ما أمر الله به .

إِنَّ مَا تُوعَدُون لَصَادِقٌ : إن ما وعدكم الله به من البعث والثواب والعقاب حقيقي .

إِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ : إن الحساب يوم القيامة واقع لا محالة .

والسَّماءِ ذَاتِ الحُبُكِ : قَسَمٌ بالسماء ذات الخَلْق الحسن والبنيان المتقن .

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ : إنكم أيها الناس لفي قول مختلف في هذا القرآن فمنكم مصدّق به ومنكم مكذّب له .

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ : يُصرف عن الإيمان بالقرآن من صُرف عنه .

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ : لُعِنَ الكذابون .

فِي غَمْرَةٍ : في ضلال وجهل .

سَاهُونَ : لاهون غافلون عن الحق الذي جاء به محمد ﷺ .

يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي
كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ
مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ
ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ
لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ
أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ
إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ

شَـرح المفـرَدات

أيَّانَ يَوْمُ الدِّين : متى يوم المجازاة والحساب .

يُفْتَنُونَ : يُعذبون بالإحراق بالنار .

فِتْنَتَكُم : عذابكم المعدّ لكم جزاء كفركم .

مَا آتَاهُم رَبُّهُمْ : ما أعطاهم من الثواب والكرامات .

يَهْجَعُونَ : ينامون ليلاً .

الأَسْحَارِ : أواخر الليل .

للسَّائِلِ : للمحتاج الفقير الذي يسأل الناس .

الْمَحْرُوم : الفقير المتعفّف الذي لا يسأل الناس فيُحرم الصدقة .

وفي الأرض آيات للموقنين : وفي الأرض علامات ودلائل على وجود الله لأهل اليقين الذين يعرفون ربهم ببديع صُنعه .

وَفِي أَنفُسِكُمْ أفلا تُبْصِرُونَ : وفي خلق أنفسكم علامات تدل على القدرة الإلَهية .

ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ : ضيوف إبراهيم وكانوا من الملائكة .

الْمُكْرَمِين : الكرام عند الله لأنهم من الملائكة .

قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ
قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ
بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ
عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾
۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ
مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

شرح المفردات

قَوْمٌ مُنْكَرُونَ : قوم غرباء غير معروفين .

فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ : ذهب إلى أهله خفية عن ضيوفه .

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً : أحسَّ في نفسه الخوف منهم .

فِي صَرَّةٍ : في صيحة وضجة .

فَصَكَّتْ وَجْهَهَا : لطمته بيدها تعجباً .

عَجُوزٌ عَقِيمٌ : عجوز عاقر لا تلد .

فَمَا خَطْبُكُمْ : فما شأنكم وقصتكم .

مُسَوَّمَةً : معلّمة بعلامة .

تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً : أي تركنا في تلك القرى علامة تدل على ما أصابهم من العذاب .

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

ايضـــاح و دروس

هذه الـسورة تؤكد وقوع البعث والجزاء في الآخرة ، وتنذر المكذبين بهما بسوء المصير ، كما تبيّن مصير المتقين ، وما أعد الله لهم من نعيم في الآخرة جزاء طاعتهم لربهم وإحسانهم في أعمالهم ، كما تلفت الأنظار إلى التأمل في الأرض وفي الأنفس وما أودع الله فيهما من عجائب الصنع التي تشهد بوجود خالق لها .

كما تحدثت هذه الـسورة عن قصة إبراهيم مع ضيوفه الملائكة ، ثم تعرضت لأحوال بعض الأمم الـسابقة ، وما أصابهم من الهلاك جزاء كفرهم وعصيانهم ، كذلك حثت هذه الـسورة على الرجوع إلى الله وإفراده بالعبادة .

إستهلت هذه السورة بالقسم بجملة أمور لتأكيد أن البعث والجزاء في الآخرة كائنان لا محالة :

﴿ وَالـذَّارِيَاتِ ذَرْواً . فَـالْحَامِـلَاتِ وِقْـراً . فَـالْجَـارِيَـاتِ يُسْـراً . فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً . إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ (١ ـ ٦) .

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً ﴾ قَسَمٌ بالرياح التي تذرو الرمال والتراب واللقاح وتفرقها ، ومعنى ذرا : فرّق وبدد .

﴿ فَالحَامِلَاتِ وِقْراً ﴾ قَسَمٌ بالـسحب المثقلة بالمطر ، والوقر : الحمل الثقيل .

﴿ فَالجَارِيَاتِ يُسْراً ﴾ قَسَمٌ بالـسفن الجارية في البحر بـسهولة ، واليُسر هو السهل في كل شيء .

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ﴾ قسم بالملائكة التي تتولى تقسيم أمور العباد وأرزاقهم بأمر الله ومشيئته .

ويحتمل أن يكون المُقْسَمُ بها هي الرياح فقط ، فهي التي تذرو التراب وتفرّقه ، وتحمل السحب المثقلة بالمطر ، وتجري بالسحب بيسر وسهولة بتسخير الله ، ويقسِّمُ بها سبحانه أرزاق العباد بالماء الذي ينزل من السماء .

أما الأمر المقسم عليه ، أو مَا يُسَمَّى جواب القسم فهو : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ أي إن ما وعدكم به ربكم من بعث الأجسام حيّة يوم القيامة بعد موتها ، لهو وَعْدٌ صادق لا ريب فيه ، وأن الجزاء والحساب على الأعمال لأمر حاصل يوم القيامة لا محالة .

فالله سبحانه أقسم في مستهل هذه السورة لأن القَسَم كان شائعاً عند العرب ومن أساليب كلامهم لتأكيد أمر أو الاهتمام به ، والقَسَم في هذه السورة هو لإظهار أهمية المقسم به وما فيه من الدلالة على قدرة الله وحكمته ، وأن الله الذي خلق الرياح والمياه وغيرهما لقادر على إعادة الأجسام كما بدأها أول مرة .

وما يكاد هذا القسم ينتهي حتى يعقبه قسم آخر بالسماء على أنهم مختلفون في موضوع القرآن والنبوة ويوم الجزاء في الآخرة ، وأن المكذبين بهذه الأمور يستحقون العذاب في الآخرة :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ . إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ . قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ . يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ . يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ . ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٧ ـ ١٤) .

فالله سبحانه أقسم بالسماء ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ أي ذات البنيان المحكم المتقن وذات الخلق السوي الحسن ، والقسم بها دعوة للتأمل بها تأملاً يظهر عظمة خالقها .

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ هذه الجملة جواب القسم ، أي إنكم يا أهل مكة تختلف أقوالكم في محمد والقرآن ويوم الجزاء ، فمنكم مصدّق بأن محمداً رسول الله ، والقرآن وحي إلهي وأن هناك يوم الجزاء بعد هذه الحياة حيث يُدان الناس بأعمالهم إما إلى نعيم وإما إلى عذاب . ومنكم مكذّب بمحمد وواصف له بأنه ساحر أو مجنون أو كاهن ، وأن القرآن ليس من كلام الله ، وأنه لا بعث ولا جزاء بعد هذه الحياة .

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي يُصرف عن الإيمان بالله وبرسالة نبيه محمد ﷺ من صُرف ممن كذّب بذلك واختار لنفسه الكفر بدل الإيمان .

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ أي لُعن الكذابون الذين اعتمدوا في تكذيبهم على الظن والوهم ، لأن كل قول صادر عن ظن وتخمين يقال له : خَرْصٌ . وإنما عبَّر الله عن اللعن بالقتل لأن من لعنه الله : أي طرده من رحمته ، كان بمنزلة الهالك المقتول . والخرّاصون هم الذين كذبوا على الله فنسبوا له الشريك ، ونسبوا له الولد ، وكذّبوا محمداً بإنكار نبوته ، وكذّبوا في إنكارهم للبعث والجزاء على الأعمال بعد الممات ، كما هو حال المذاهب المادية التي تنكر الأديان والخالق وتشيع الإلحاد . هؤلاء الكذّابون ﴿ الذينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُون ﴾ في غمرة : أي في جهل وضلالة تغمرهم . ساهون : لاهون غافلون عن أمر الآخرة . فهؤلاء تسترهم وتغطيهم الأضاليل والأوهام والظنون ، وهم لاهون عن أمر الآخرة بانشغالهم بالدنيا وملذاتها وشهواتها .

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّين ﴾ إنهم يسألون متى يوم الحساب ، ولكنه

سؤال استهزاء وإنكار ، لا سؤال راغب في المعرفة ، والوصول إلى الحق . ويأتي الجواب على هذا السؤال سريعاً مرعباً وذلك بعرض مشهد من مشاهد العذاب التي أعدها الله لهم : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ أي يُعذبون بالإحراق يوم القيامة ، ويُقال لهم : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُم ﴾ أي ذوقوا عذابكم ﴿ هَٰذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي هذا الذي كنتم تستعجلون وقوعه استهزاء وتظنون أنه غير كائن .

وفي مقابل هؤلاء الكفار المعذبين في الآخرة يبيّن الله حال المتقين :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (١٥ ـ ١٩) .

فالذين اتقوا الله في الدنيا بطاعته واجتناب معاصيه هم في حدائق وعيون في الآخرة ، إنهم متمتعون بما أسبغه الله عليهم من الثواب والكرامة ، وسبب ذلك . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ إنهم كانوا قبل دخولهم الجنة محسنين لأعمالهم ، مراقبين الله فيها ، آتين بها على الوجه الذي يريده الله ، فلذلك كافأهم ربهم بالنعيم الأخروي .

ثم أخذ القرآن يصوّر إحسانهم بما صدر عنهم من عبادة ربهم ومن مساعدتهم للمعوزين :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ما يهجعون : « ما » زائدة للتأكيد ، والهجوع النوم القليل بالليل ، فهؤلاء كانوا لا ينامون إلاّ قليلاً ، ويمضون أكثر الليل في ذِكْرِ الله والصلاة والعبادة ، وهذا ما يجعل مشاعرهم وأحاسيسهم مرهفة فاعلة للخير ، على عكس أولئك الذين يفرطون في

النوم ، أو الذين يفرطون في السهر على اللهو والملذات .

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ والأسحار : جمع سَحَر وهو آخر الليل وقبيل الصبح . فهؤلاء المحسنون كانوا في أواخر الليل يطلبون المغفرة من ربهم لذنوب اقترفوها . يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره : إنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون من التقصير . والسَّحَر هو وقت يُرجى فيه إجابة الدعاء ، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن رسول الله أنه قال : « إن الله تعالى يَنْزِل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من سائل فيُعطى سُؤله حتى يطلع الفجر » .

ومن صفات هؤلاء المتقين : ﴿ وفي أَمْوَالِهِم حَقٌّ لِلسَّائِلِ والْمَحْرُوم ﴾ والسائل هو الذي يسأل الناس المال لفقره ، والمحروم هو الذي حُرِمَ المال ، أو المتعفّف الذي لا يسأل الناس شيئاً ولا يُعلم فقره وحاجته ، أو الذي أُصيب بكارثة طبيعية أو المحتاج العاطل عن العمل .

فالمحسنون أدركوا أن أموالهم ليست كلها ملكاً لهم ، بل إن فيها جزءاً لغيرهم من المحتاجين ، وهذا الجزء هو « حق » للمستحقين وليس منّة ، وَوَصَفَهُ القرآن في موضع آخر من هذه السورة بـ «حق معلوم » . وقد أطلق العلماء على هذا الحق اسم « الزكاة » مع العلم أن هذه السورة مكية ـ أي نزلت بمكة ـ والزكاة شُرِعت في المدينة ، ولا يمنع من إطلاق اسم الزكاة على هذا « الحق » فالزكاة في مكة كانت مطلقة القيود ، وكانت موكولة إلى إيمان الأفراد وأريحيتهم وغير محدودة ، أما في المدينة فقد نزلت آيات أكّدت وجوبها وبينت مستحقيها ، كما بيّن النبي ﷺ مقادير الزكاة .

فالزكاة في نظر الإسلام هي « حق » قرره الله سبحانه ، فليس في التصدّق بالمال معنى التفضّل والمنّة من الغني على الفقير ، وأي فئة غنيّة تتمرّد على أداء هذا الحق فإن من واجب إمام المسلمين أن يقاتلهم حتى يُؤدّوا حق الفقراء في أموالهم ، وهذا ما صرحت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ ، وهذا ما فعله الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ومن معه من صحابة رسول الله حين قاتلوا الممتنعين عن أداء الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ .

ثم يبيّن القرآن بعد ذلك بعض الدلائل على وجود الله من خلال التأمل في الأرض .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾(٢٠) .

أي إن في الأرض دلائل وعلامات تدل على وجود الله ووحدانيته وذلك بما تحتويه الأرض من نبات وحيوان وجبال وبحار وتربة وغير ذلك ﴿ للموقنين ﴾ واليقين هو العلم ، وإزاحة الشك ، وتحقيق الأمر ، فالمؤمنون أيقنوا بوجود الله الذين يعرفونه ببدائع صنعه[1] .

والجدير بالذكر أن الطريقة التي سلكها القرآن في الدلالة على وجود الله

---

(١) يقول الدكتور لورنس كولتون ووكر : « . . . ولكي يدرك الإنسان روعة هذا العالم وما وراءه من جلال الحكمة والتدبير لا بد أن يدرسه وأن يتأمل ما يدور في الغابات والحقول ، عندئذٍ سوف يجد أن ما كان يعده طبيعياً ليس إلاّ إعجازاً إلّهياً يعلو فوق مستوى البشر وتعجز العقول عن إدراك كنهه ، وهنا لا سبيل إلاّ الإيمان بالله وقدرته وجلاله » . (نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم) .

ويقول الدكتور لستر جون زمرمان : « وكلما ازددتُ دراسة وتعمقاً في طبيعة التربة والنباتات ، ازداد إيماني بالله وسجدت له إعجاباً وتقديساً (نفس المصدر) .

ولو أردنا استعراض ما على الأرض من حيوانات برية وبحرية وحشرات وما يكتنف حياتها من نظام وأسرار تشهد بوجود الله لاستلزم لذلك مجلدات كثيرة .

هي الطريقة التي يستدل بها العلماء الكونيون في العصر الحاضر على وجود الله ، فالقرآن في كثير من الآيات يوجه الأنظار إلى خلق السماء والأرض ، ويدعو إلى التأمل فيهما تأملاً يوصل الإنسان إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته وقدرته العظيمة التي خلقت هذا الكون .

وإذ يوجّه القرآن الأنظار إلى خلق الأرض فهو أيضاً يوجّه الأنظار إلى خلق الإنسان وما يحتويه جسمه من عجائب تدل على عظمة القدرة الإلّهية ، قال تعالى :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُم أفلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢١) .

أي إن في أنفسكم ـ أيها الناس ـ آيات وعبراً تدلكم على وحدانية خالقكم ، وأنه لا إلّه لكم سواه ، أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه فتؤمنوا بوجود ربكم .

أية ناحية من نواحي الإنسان ليست مثار دهشة وعجب ؟ ! أليست أطواره في الرحم آية من آيات الله ؟! أليس نظام طعامه وشرابه وتحلل الطعام إلى عناصر مختلفة يذهب كل عنصر إلى حيث يؤدي وظيفته عدا العنصر الذي لا يفيد فيطرد إلى الخارج ، أليس في هذا النظام من أسرار الخلق الشيء الكثير ؟

أليس نظام توزيع الدم من مكانه الرئيسي وهو القلب إلى جميع أنحاء الجسم بواسطة الشرايين ، ثم عودته إلى القلب بواسطة الأوردة ، ومرور الهواء الجديد الذي جلبه التنفس ليصلح الدم وينقيه ، أليس ذلك من آيات الله ؟

عمَّ أحدثك بعد ؟ أأحدثك عن سمع الإنسان وبصره وما فيهما من أسرار

الخلقة ؟ أم أحدثك عن نُطقه وإحساسه وتفكيره ؟ أم أحدثك عما يعرض له من تذكر ونسيان وحزن وأحاسيس أخرى ؟ أم عن الغريزة الكامنة الكافلة لبقاء النوع الإنساني ؟ إن كل واحدة من تلك الأمور تدل على معجزة من معجزات الله في الخلق التي وقف الإنسان أمامها مبهوراً .

وبعد عرض الدلائل على وجود الله يبين القرآن مصدر رزق الإنسان .

﴿ وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (٢٢ ، ٢٣) .

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أي في السماء سبب رزقكم وهو المطر فإنه سبب الأرزاق ، وقيل : أي عند الله في السماء رزقكم ، وقيل : وفي السماء تقدير رزقكم ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من خير أو شر ، وثواب أو عقاب .

ثم يقسم الله بنفسه أن ما يُوعدون به من الرزق والثواب والعقاب هو حق لا ريب فيه مثل نطقهم ، فكما أنكم أيها الناس لا تشكُّون في نطقكم حين تنطقون ، فكذلك يجب ألا تشكوا في ما وعدكم به ربكم .

وقد يسأل سائل : لمَ اختص الله النطق من بين سائر حواس الإنسان وقدراته واعتبره آية على الحق الذي لا يمكن جحوده ؟ الجواب : أن النطق هو أظهر حواس الإنسان اعتماداً على إرادته ، بينما السمع والبصر والذوق والشم واللمس تحتاج إلى مؤثر خارجي .

وقد ذُكِرَ أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ هذه الآية الأخيرة فقال : يا سبحان الله من الذي أغضبه حتى حلف ، ألم يصدقوه في قوله حتى ألجأوه إلى اليمين ؟ يا ويح الناس !

ثم تأتي بعد ذلك الآيات التالية وفيها الكلام عن إبراهيم عليه السلام

واستضافته للملائكة الذين جاؤوه بالبشرى بولد سَيُرْزَقه :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْه فَقالُوا سَلَاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ في صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ . قالوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ ﴾ (٢٤ ـ ٣٠) .

أي هل أتاك يا محمد حديث ضيوف إبراهيم الذين جاؤوه بالبشرى ؟ والاستفهام هنا يراد به التعجب والتشويق إلى تلك القصة التي يرويها القرآن الكريم . وضيف : يطلق على الواحد والجمع ، وقد كان ضيوف إبراهيم جماعة من الملائكة أتوا على صورة شبان حسان ملاح ، وقد وصفهم الله بـ ﴿ المكرَمين ﴾ لأنهم مكرمون عنده ، أو عند إبراهيم لما قام به من حسن الضيافة نحوهم . ﴿ فقالوا سَلاماً ﴾ لإبراهيم ، فأجابهم : ﴿ سلام قوم منكرون ﴾ أي سلام عليكم أيها القوم الغرباء ، قال ذلك لأنهم ليسوا من معارفه ، ويحتمل أنه قال : ـ (قوم غرباء) ـ في قرارة نفسه ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ فذهب إلى أهله خفية عن ضيوفه ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أي أتى لضيوفه بعجل سمين مشوي[1] ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِم قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ ﴾ أي وضع العجل بين أيديهم داعياً إياهم إلى الأكل .

والآيات التي وصفت ضيافة إبراهيم لزوّاره انتظمت فيها آداب الضيافة ، فإن إبراهيم جاء بطعام من حيث لا يشعرون ، ولم يمتن عليهم بقوله : سآتيكم بطعام بل جاء به خفية عنهم ، وأتى بأفضل ما وجد عنده وهو عجل سمين فقرَّبه إليهم ولم يضعه بعيداً ، ولم يأمرهم بالاقتراب منه بل

---

(١) جاء في القرآن في موضع آخر : (وجاءهم بعجل حنيذ) أي مشوي

وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمراً بالأكل بما يشق على أسماعهم بل قال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ دعوة منه إلى الطعام بلطف ، لأن ألا ، تأتي في اللغة للحث بلطف .

وطبعاً هؤلاء الملائكة لم تمتد أيديهم إلى الطعام لأن الملائكة لا يأكلون ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أي أحس إبراهيم في نفسه الخوف منهم عندما رأى إعراضهم عن الطعام ، وظنَّ أن امتناعهم عنه هو لشرٌ يبيّتونه له ، وذلك أن أكل الضيف من طعام مضيفه فيه أمان واطمئنان للمضيف ودليل على انبساطه ، وقد لاحظ الضيوف آثار الخوف على إبراهيم فكشفوا له عن حقيقة أمرهم وقالوا له : ﴿ لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أي قالوا لإبراهيم : نحن ملائكة لا بشر فلا تخف منا فقد أرسلنا ربك إلَيْك بما يسرك ، وَبَشّروه بولد سيرزقه وهو الذي سمّاه : إسحق ، ووصفه الله بصفة العلم ليزداد سرور أبيه ، والعلم أكمل صفة في بني الإنسان ، وإنما قال : ﴿ عليم ﴾ ولم يقل عالم ، لأنها صيغة مبالغة تدل على أنه سيكون راسخاً في العلم محيطاً بشرائع الله .

سمعت سارة زوجة إبراهيم هذه البشرى ففوجئت بهذا النبأ ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ أي أقبلت زوجته نحو الضيوف في صيحة وضجة ، وكانت صيحتها من الدهشة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾أي ضربت وجهها بيدها على عادة النساء عند التعجب ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي أنا عجوز عاقر فكيف ألد ، والعاقر لا تلد إما لمرض أو لكبر في السن . لقد صرخت سارة دهشة وضربت وجهها عجباً لأن الخبر جاء على غير ما ألفه البشر ، وغاب عن بالها أن هذه البشرى التي تحملها الملائكة هي بشارة من الله حيث لا مجال للعجب والدهشة ، وأن الله إذا أراد شيئاً فإنه يقول له كن فيكون ، ولذا قالت

لها الملائكة : ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هو الحَكيمُ العَليمُ ﴾ فهو سبحانه الحكيم فيما يفعله ، العليم بمصالح خلقه ، وقد رُوي أن سارة ولدت إسحق ولها من العمر تسع وتسعون سنة وإبراهيم له من العمر مائة سنة .

إطمأن إبراهيم عليه السلام لضيوفه عندما علم أنهم من الملائكة ، وسُرَّ للبشرى التي بشروه بها ، ولكن البشارة يكفي فيها ملك واحد فقط ، لذلك أدرك أنه لا بد أن يكون لهم أَمْرٌ أهم من البشارة التي جاؤوا بها ، عندئذٍ سألهم عن المهمة التي جاؤوا لأجلها :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُم أَيُّهَا المُرْسَلُونَ . قالوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ . فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمِنِينَ . فما وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَتَرَكْنَا فيها آيَةً لِلَّذين يَخَافُونَ العَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (٣١ ـ ٣٧) .

كلمات قليلة أخَّاذة تصف العذاب الذي أصاب الله به قوم لوط ، تقرع القلوب ، وتقشعر لهولها الجلود .

لقد ذكر الله قصة لوط في عدة سور من القرآن ، وذكرنا في سورة الطور ملخصاً لها ، وفي هذه السورة يبين الله نوع العذاب الذي أصابهم .

لقد قال إبراهيم لضيوفه الملائكة : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي ما شأنكم وقصتكم أيها المرسلون من عند الله ﴿ قالوا : إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ والمجرمون هم المذنبون الذين عظمت جريمتهم ، وجريمة قوم لوط كانت : اللواط ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ أي لنرجمهم بحجارة من طين متحجر ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أي لها علامة فارقة ، قيل : إنها كانت مخططة بسواد وبياض ، وقيل : هي حجارة معروفة بأنها حجارة العذاب

﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أي معدَّة في علم الله لعذاب العصاة ﴿ للمسرفين ﴾ للمجاوزين الحد في الفجور .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لما أراد الله إهلاك قوم لوط أخرج من كان في المدينة من المؤمنين لئلاّ يهلكوا ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي لم يكن في المدينة غير بيت واحد من المسلمين ، والمراد بهؤلاء المسلمين : لوط وابنتاه ، وقيل كانوا ثلاثة عشر من المؤمنين . ومعنى المسلمين : أي أنهم كانوا مصدّقين بقلوبهم ، ناطقين بألسنتهم بكلمة الإيمان ، مطيعين بجوارحهم ما جاء به لوط عن ربه من الهدى ، وكلمة المسلمين تطلق في القرآن الكريم على أتباع الأنبياء السابقين وأتباع محمد ﷺ وما من مؤمن إلاّ وهو مسلم .

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أي وأبقينا في مكان قرى قوم لوط علامة دالة على نوع العذاب الذي أصابهم فيعتبر من كان عنده استعداد للاعتبار والخوف من عذاب الله .

والبحر الميت في الأردن هو الموضع الذي كان فيه قوم لوط ، وهو لم يكن موجوداً قبل إهلاك قوم لوط ، وإنما حدث من الزلزال الذي جعل عالي المدن سافلها وصارت الأرض أخفض من سطح البحر بنحو ٤٠٠ متر ، وقد جاءت الأخبار في السنين الماضية عن اكتشاف آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت[١] .

---

(١) قصص الأنبياء ، للأستاذ عبد الوهاب النجار .

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾

شرح المفردات

بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ : بحجة واضحة ، وهي المعجزات التي آيد الله بها موسى .

بركْنه : أي بما يعتمد عليه من الجيوش التي كان يتعزّز بها ويتقوى .

فَنَبَذْنَاهُمْ في اليَمِّ : فألقيناهم في البحر .

وَهُو مُليمٌ : وهو ملام لما به من الكفر .

الرِّيحَ العَقِيمَ : الريح المهلكة التي لا خير فيها ولا بركة .

مَا تَذَرُ من شيء أَتَتْ عَلَيْهِ : ما تترك شيئاً مرت عليه .

جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ : جعلته كالشيء البالي المفتت الهالك .

تَمَتَّعُوا حتى حِينٍ : تمتعوا بعيشكم إلى وقت انقضاء آجالكم .

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ : تكبّروا عن طاعة ربهم .

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ : فأهلكتهم صيحة أو نار من السماء .

فَاسِقِينَ : خارجين عن طاعة الله .

بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ : بنيناها بقوة وقدرة .

وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا : مهّدناها وبسطناها للسكن والزرع .

فَنِعْمَ المَاهِدُونَ : فنعم الموَطِّئون المصلحون لها .

وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

شرح المفردات

لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ : كي تعتبروا وتتعظوا وتعلموا أن الله واحد لا شريك له .

فَفِرُّوا إلى الله : فالجأوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته بالإيمان به واتباع أمره

نَذِيرٌ : مُنذر ومحذِّر من عذاب الله .

مُبِينٌ : واضح الرسالة بالحجة الظاهرة والمعجزة الباهرة .

طَاغُونَ : متجاوزون الحد في الكفر والعصيان .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ : فأعرض عنهم .

فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ : أي لا لوم عليك لأنك أديت رسالة ربك .

وَذَكِّرْ : داوم على تذكير الناس ووعظهم بالقرآن .

لِيَعْبُدُونِ[1] : ليخضعوا لي .

ذَنُوباً : نصيباً من العذاب .

مِثْل ذَنُوب أَصْحَابِهِمْ : مثل نصيب أصحابهم الذين هلكوا من قوم نوح وعاد وثمود .

---

(١) أصل الفعل ليعبدوني حذفت الياء لمراعاة (الفواصل) وهي أواخر الآيات .

تَابع سُورَةِ الذَّارِيَاتُ

ثم ينتقل القرآن ، بعد ذلك ، فيذكر بإيجاز ما حل بفرعون وقومه جزاء إعراضهم عن هدى الله وتكذيبهم برسالة نبيهم موسى ، هذا مع العلم أن قصة موسى مع فرعون هي أكبر قصص القرآن وهنا يشير القرآن إلى هلاكهم بسبب تكذيبهم رسالة موسى ، وهكذا سيكون مصير كفار مكة إن استمروا على تكذيبهم لرسالة محمد ﷺ : يقول تعالى :

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (٣٨ - ٤٠) .

أي في قصة موسى عظة وعبرة حين أرسله الله بالهدى إلى فرعون . وفرعون هو : منفتاح بن رعمسيس الثاني . ﴿ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة وبرهان ظاهر يشهد بنبوته ، وهي معجزة العصا التي انقلبت حية لتبتلع كل ما صنعه سحرة فرعون وكذلك معجزات أخرى أيده الله بها . ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ ﴾[1] أي أعرض عن الإيمان مع قومه الذين كان يتقوى بهم ويعتمد عليهم وهم جنوده ، ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ وإنما قال ذلك تمويهاً على قومه ، لا شكاً في صدق نبوة موسى ، فإن ما رآه فرعون من المعجزات لا يتحقق على يد ساحر أو يفعله من به مسٌّ من جنون .

ثم يبين القرآن نتيجة كفره مع جنوده : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ أي أمسكناه وجنوده بحيث لا يمكنهم الخلاص وطرحناهم في البحر ليهلكوا غرقاً ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ وهو مستحق اللوم لما عليه من كفر وطغيان .

وذلك أن موسى لما ضرب البحر بعصاه كما أمره الله انشق الماء وصار

---

(١) بركنه : ركن الشيء جانبه الذي يسكن إليه وقد استعير هنا لمعنى القوة .

فيه اثنا عشر طريقاً يبساً ، ووقف الماء على جوانبها كالجبل العالي ، فسار بنو إسرائيل في الطرق المفتحة لهم في البحر هرباً من فرعون وجنوده ، ولحق بهم فرعون وجنوده ، فلما رأوا الطرق المفتحة لموسى وقومه ساروا خلفهم فانطبق الماء عليهم وغرقوا جميعاً ، ونجّى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل وذلك باجتيازهم البحر ووصولهم إلى اليابسة .

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر ما حلّ بقوم عاد وثمود وقوم نوح من الهلاك جزاء كفرهم :

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ . وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ . فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِم فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ . فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ (٤١ ـ ٤٦) .

أي وفي قصة قوم عاد عبرة وعظة لمن تأمّل فيها حين أرسل الله عليهم الريح ﴿ الْعَقِيم ﴾ تلك الريح الخالية من كل منفعة ، فهي لا تسوق سحاباً ممطراً ، ولا تلقح شجراً فهي كالمرأة العقيم التي لا تنجب . وهي ريح عقيم بمعنى أنها مهلكة مدمرة قاطعة للحرث والنسل وكل خير يملكونه ، وهذه الريح ما تترك من شيء مرت عليه إلّا جعلته ﴿ كالرَّميم ﴾ أي كالشيء الهالك المتفتت البالي .

وفي قصة قوم ثمود أيضاً عظة وعبرة ، إذ قيل لهم تهديداً ـ بعد نحرهم الناقة التي نهاهم الله أن يمسوها بسوء ـ : ﴿ تَمَتَّعوا حَتَّى حِينٍ ﴾ أي عيشوا متمتعين بلهوكم وغيكم إلى الوقت الذي قَدَّرَهُ الله لهلاككم ، هذا وقد كانت مدة تمتعهم ثلاثة أيام ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي تكبّروا عن امتثال أوامر الله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي أخذتهم صيحة جبريل المهلكة :

إنها صيحة العذاب ، وهم يشاهدونها لأنها جاءتهم في وضح النهار ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ ﴾ فما قدروا عند نزول العذاب من الهرب ولا النهوض من أماكنهم من شدة الصيحة ﴿ وَمَا كانوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ وما كان لهم ناصر ينجيهم من العذاب الذي حلّ بهم .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ أي وقوم نوح أهلكهم الله قبل قوم عاد وثمود إنهم كانوا قوماً فاسقين . والفسق : هو الخروج عن طاعة الله فيشمل الكفر والمعصية واقتراف الرذائل ، وفي تعليل الإهلاك بالفسق دليل على أن المعاصي سبب في استئصال أصحابها والقضاء عليهم ، كما أن في إهلاك الفسقة تطهير الأرض منهم كما يُطهَّر الجسم باستئصال العضو الفاسد ، والقرآن يذكر أن هلاكهم كان بالطوفان ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُم أَجْمَعِين ﴾ الأنبياء : ٧٦ .

وبعد أن بيَّن القرآن سُنَّة الله بإهلاك الأمم الظالمة الفاسدة ، وجّه الأنظار إلى التأمل في خلق السماء والأرض مما يشهد بوجود الله وعظمته :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ[1] . والأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ . وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤٧ ـ ٤٩) .

يبيِّن الله تعالى للناس نماذج عن قدرته العظيمة وإبداعه في هذا

---

(١) إذا رجعنا إلى أصول اللغة وجدنا (أوسع) تأتي بالمعاني التالية :
أولاً : أوسع الشيء ووسعه : جعله واسعاً .
ثانياً : انطلق الجمل وأوسع : انطلق الجمل مبعداً في سيره .
ثالثاً : اتسع النهار : امتد وطال . وبناء على هذه المعاني لفعل « أوسع » يمكننا أن نقول إن الآية الكريمة : ﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُون ﴾ يفهم منها معنيان اثنان : أولاً أن الله تعالى خلق السماء حين خلقها واسعة ، وهذا المعنى هو الذي فهمه الأوائل ثانياً : أن الله خلق السماء حين خلقها واسعة وأنها تمتد وتتسع وتزيد .

الكون ، فيبدأ بذكر خلقه للسماء . ﴿ والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا ﴾ أي أوجدناها محكمة متقنة متماسكة كما يتماسك البناء المحكم ﴿ بِأَيْدٍ ﴾ أي بقوة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُون ﴾ أي إن الله جعل السماء واسعة ، أو بمعنى أنه سبحانه لموسع في خلق السماء ، وهذا ما سنوضحه فيما بعد في التفسير العلمي .

ثم يذكر سبحانه خلقه للأرض ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ أي بسطناها ومهدناها ، ولا ينافي ذلك كرويتها لأن كل بقعة منها ممهدة يسكنها جماعة فوق سطحها ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ أي فنعم الخالق المبدع الذي هيأ الأرض وسوّاها صالحة للسكن .

وأخيراً يذكر سبحانه مظهراً من مظاهر قدرته ينفي قيام الكون على الصدفة العمياء : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْن ﴾ أي من كل شيء خلقنا صنفين مزدوجين كالذكر والأنثى ، والليل والنهار ، والسالب والموجب ، وغير ذلك مما سنوضحه فيما بعد في التفسير العلمي . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذكَّرُونَ ﴾ أي لكي تتذكروا عظمة الله فتتعظوا وتؤمنوا بوجوده ووحدانيته .

وبعد أن عرض القرآن مظهراً من قدرة الله وعظمته في خلق السماء والأرض أمر بالمسارعة إلى طاعة الله واللجوء إليه وحده :

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ . وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٥٠ ـ ٥١) .

فالفرار هو الهرب ، ويكون عادة من الخطر الداهم ، والخطر الذي يتربص بالناس هو الكفر والعصيان وغفلتهم عن ربهم ، فالفرار يكون بالهرب من العصيان والذنوب والالتجاء إلى الله والعودة إليه بالتوبة والطاعة والعبادة .

وفي الفرار إلى الله لذة روحية يستشعرها كل من اتصل قلبه بالله عز وجل ، فمتطلبات الحياة تجعل الإنسان في دوامة من التعب والإرهاق والهم والقلق ، ففي الفرار إلى الله تخلّص من هذه الأثقال والهموم ، والاتصال بخالق السماء والأرض ، مصدر الرزق ، ومصدر الخير ، ومصدر السعادة للإنسان .

فالفرار إلى الله هو أعمق تعبير يُجَسِّد الاتصال بالله اتصالاً يقوم على الإيمان والشوق والحب للخالق . فما أجدر بالإنسان في رحلة العمر أن يفرّ إلى الله الفينة بعد الفينة ، ويعيش في ملكوت الله مسبحاً بحمده ، شاكراً لأنعمه ، مستغفراً لذنبه مما يسبغ على النفس سعادة وطمأنينة ، ولذة لا تقاس بلذات الحياة الدنيا .

﴿ إِنِّي لَكُمْ منه نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي قل لهم يا محمد إني أنذركم عذاب الله وأخوفكم من انتقامه بالحجة الظاهرة والبرهان القاطع .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ ﴾ فهذه الآية تنهى الناس أن يُشركوا مع الله معبوداً آخر ، ويخطىء بعض الناس حين يتصورون أن هذا المعبود الآخر لا يكون إلاّ صنماً من الحجارة ، في حين أن المعبود الآخر قد يكون المال ، وفي هذا يقول النبي ﷺ : « تعس عبد الدينار والدرهم »[1] . وقد يكون المعبود من دون الله : ملكاً أو زعيماً أو رجل دين ، وفي هذا المعنى يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ آل عمران : ٦٤ . وقد يكون المعبود من دون الله هوى الشخص ورغباته الجامحة ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ الجاثية : ٢٣ . ﴿ إني لكم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ كررها القرآن زيادة في النصح وتحذيراً من عواقب

---

(١) رواه البخاري .

الإشراك بالله .

ثم تنتقل بنا آيات القرآن حاملة العزاء للنبي ﷺ بسبب موقف العداء من قومه موضحة له أن هذا الموقف ينطبق على سائر الأمم مع أنبيائهم :

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ . وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٢ ـ ٥٥) .

فالله يخبر نبيه بأن شأن الأمم مع أنبيائهم في الإنكار والإيذاء والجحود مثل شأن أمته معه ، ما أتى الذين من قبلهم من الأمم من رسول من عند الله إلّا قالوا : ساحر أو مجنون ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتعجب من حالهم ، أي هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب ، ووصف كل رسول بأنه ساحر أو مجنون ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي ما أوصاهم أحد بذلك بل جمعتهم صفة الطغيان ، وهو مجاوزة الحد في العصيان .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُم ﴾ أي أعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين بالله وكُفَّ عن جدالهم حتى يأتي أمر الله فيهم ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ فليس عليك ملامة عند الله بعد إنذارك إياهم لأنك قد أديت ما عليك وبلّغْتَ رسالة ربك .

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المؤْمِنين ﴾ أي عظ يا محمد بالقرآن مَنْ آمن مِنْ قومك فإن الذكرى تنفع فريقاً معيناً هم المؤمنون، وخصَّهم الله بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالوعظ . وهذه الآية هي موجهة في الوقت نفسه إلى كل داعية إلى الله كي يواظب على الوعظ والتذكير بهدى الله ؛ وأن لا يقول قد بُحَّ صوتي ولا من مجيب ، فإن دعوة الحق لا بد أن تجد آذاناً صاغية ولو بعد حين ، وأن الحق لا بدّ له في النهاية أن يقتلع الباطل من أساسه .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الغرض والهدف من خلق الله للإنس والجن :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) .

فالقرآن يبين الغاية من خلق الناس والجن ألا وهي : عبادة الله . وعبادة الله من أسس الإسلام جاء في الدعوة إليها كثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية . ومظهر العبادة الأول هو الصلاة التي يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم والليلة ، وهناك مظاهر أخرى للعبادة وهي : الصوم والحج والزكاة والتي أُطْلِقَ عليها جميعاً اسم العبادات ، وهي تشكل مع الشهادتين ـ الشهادة بألوهية الله وحده ، والشهادة بنبوة محمد ﷺ ـ الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام . ولأهمية العبادة يحسن بنا أن نقف قليلاً عندها لنستعرض بعض معانيها ومظاهرها استعراضاً موجزاً .

إذا رجعنا إلى معاجم اللغة رأينا معنى عبادة الله : الخضوع والتذلل لله والتنسك له ، مع طاعته والانقياد لأمره .

فالله سبحانه حين يقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي ما خلقتهم إلاّ لآمرهم أن يعبدوني ، وأدعوهم إلى عبادتي . ويقول بعض المفسرين : ما خلقتهم إلا ليعرفوني ، ومن عرف الله عرف استحقاقه للحب والتعظيم والحمد والثناء والشكر ، ومن عرف الله وعظمته وجه قوى النفس إلى البرّ والخير ، وكفها عن الإثم والشر .

فغاية الخلق هي العبادة ، ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية في القرآن والسنة النبوية تدعو إلى عبادة الله ، وما من شك في أن الله لا تضره معصية ، ولا تنفعه طاعة فهو سبحانه الرزاق المعطي بلا حدود ، وهو الغني عن عباده ، ولهذا جاء في القرآن : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ .

وما كانت العبادة إلاّ لأجل تكميل الإنسان ، فمن فضل الله على عباده

أنه فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن طريق العبادة ، ففائدة العبادة راجعة إلى العابد نفسه فضلاً من الله ورحمة .

فالإسلام حين أمر بعبادة الله فإنه كان يرمي إلى تحرير الإنسان من عبودية الإنسان التي لازمته السنين الطوال : من ملوك الأرض المستبدين ، وزعمائها الطاغين ، ورؤساء الدين المتألهين ، كما أراد الإسلام أن ينزع من ذهن الإنسان الاعتقاد بأن هؤلاء من عنصر أفضل ، وأن بيدهم النفع والضر .

والمتمعن في القرآن والسنة يرى أن للعبادة مستلزمات شتى ، منها :

عبادة الله وحده وعدم الإشراك به ، جاء في القرآن : ﴿ واعْبُدوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ النساء : ٣٦ .

« وعن معاذ بن جبل قال : كنت رِدْفَ[1] النبي ﷺ فقال : يا معاذ ، أتدري ما حق الله على عباده ، وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن حق الله على العباد ، أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يُعذب من لا يشرك به شيئاً »[2] .

وهذا الحق باقٍ ما بقي الإنسان على ظهر الأرض ، ولهذا يقول تعالى :

﴿ واعْبُد رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقين ﴾ الحجر : ٩٩ . واليقين هو الموت .

ومن مستلزمات العبادة : الشكر لله ، ولهذا جاء في القرآن : ﴿ وَاشْكُرُوا لله إنْ كُنْتُم إيَّاهُ تَعْبُدون ﴾ البقرة : ١٧٢ . وقال سبحانه : ﴿ بَل اللَّهَ فاعْبُد وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرين ﴾ الزمر : ٦٦ .

ومعنى الشكر لله : ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده الإنسان ثناء على

---

(١) رِدْف : راكباً خلفه .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

ربه ، واعترافاً له بنعمه عليه ، وأن يكون قلب الإنسان مملوءاً محبة لله على هذه النعم ، وشهوداً منه بأنها من الله فضل وإحسان ، وتكون جوارحه مشتغلة بطاعة الله استسلاماً له وانقياداً .

وقد كان رسول الله محمد ﷺ أشد الناس عبادة لربه ، وأكثر الشاكرين له فقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل (أي بالعبادة) حتى تتفطر[١] قدماه ، فقلت له : لِمَ تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »[٢] .

« هذا ولقد أراد الإسلام أن يصيِّر الحياة ـ في شكلها وجوهرها ـ إلى عبادة ، وليس معنى ذلك أن كل إنسان يلزمه أن يعتكف في المسجد عابداً ، وإنما معنى ذلك أن كل ما يأتيه الإنسان ، وكل عمل يتركه الإنسان يجب أن يتوفر فيه أمران :

الأول : أن يصدر في العمل ، أو في الترك قرآن أو سنة .

الثاني : أن يريد بعمله أو بتركه وجه الله .

فإذا كان الأمر كذلك كان عبادة »[٣] .

وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ البيِّنة : ٥ . والإخلاص لله أن يأتي الإنسان بالأعمال لا يشوبها رياء قاصداً بذلك وجه الله ورضاه .

ويقول النبي ﷺ : « إنَّما الأعمال بالنيات وإنما لكلِّ امرىءٍ مَا نَوَى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[٤] .

---

(١) تتفطر : تتشقق .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) الإسلام والإيمان للدكتور عبد الحليم محمود .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

فإرادة الإنسان بعمله وجه الله يجعل منه عبادة يؤجر عليها ويُثاب .

والحديث التالي له مغزاه العميق في الدلالة على ما نريد إيضاحه :

فقد رُوي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن ناساً قالوا يا رسول الله : « ذهب أهل الدثور[١] بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ، إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، وفي بُضع أحدكم[٢] صدقة ، قالوا يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وِزْر ؟ فكذلك ، إذا وضعها في الحلال كان له أجر »[٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كل سُلامى[٤] من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعة صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة »[٥] .

فالعبادة عنصر من عناصر شخصية المسلم ، فهي التي تذكره بالله ، والتذكير بالله يعمر القلب بعظمته سبحانه ، وإذا عمر القلب بعظمته وجّه قوى النفس إلى البرّ والخير وكفها عن الإثم والشر ، بالإضافة إلى ذلك فإن العبادة تُضفي طمأنينة على النفس وتُبعد عنها الهمّ والقلق .

---

(١) أهل الدثور : أهل الثراء .

(٢) وفي بضع أحدكم : وفي شهوة أحدكم .

(٣) رواه الإمام مسلم .

(٤) سُلامى : عظام الأصابع ، وقيل كل عظم في البدن .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

وبعد أن بين القرآن الغاية من خلق الإنس والجن أتبع ذلك بقوله :

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٥٧ ـ ٥٨) .

فالله تعالى يقول : ما أريد من الإنس والجن من رزق لأني غني عن العالمين ، وما أريد أن يطعموني لأني أُطعِمُ ولا أُطعَم . فالله سبحانه هو وحده المتكفل برزق عباده ، وهو ذو القدرة الباهرة ، شديد القوة لا يطرأ عليه عجز ولا ضعف .

فعلى الناس أن يعملوا ويسعوا في الأرض لطلب الرزق ، ويأملوا من الله الرزق والعطاء ، وأن لا يَذلّوا لمخلوق في طلب الرزق لأن الرزق بيد الله لا بيد العباد .

ثم يختم الله هذه السورة بإطلاق وعيد للكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ :

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (٥٩ ـ ٦٠) .

ومعنى ذنوباً : أي نصيباً من العذاب ، أي إن للذين ظلموا أنفسهم بالكفر نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم في الكفر من الأمم الماضية ، فلا يستعجلون عذاب الله قبل أوانه فإنه واقع بهم لا محالة عاجلاً أو آجلاً ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِين كَفَروا ﴾ أي هلاك للذين كفروا ﴿ مِنْ يَوْمِهِمُ الذي يُوعَدون ﴾ قيل إن هذا اليوم الذي يوعدون به بالعذاب والهلاك هو يوم القيامة ، وقيل هو يوم معركة بدر الذي قتل فيه الكثير منهم .

التفسير العلمي

الزوجية في كل شيء :

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ ﴾ الإعجاز العلمي في هذه الآية هو إثبات الزوجية في كل شيء في هذا الكون.

فمن المعروف قديماً أن الزوجية هي أساس في كيان النبات والحيوان . وهذا ما صرح به القرآن حين قال عن النبات : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ الشعراء : ٧ . وقال عن الإنسان والحيوان : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ﴾

أما ما ذهب إليه القرآن من إثبات الزوجية لكل شيء ، فإن هذا مما لم يقل به بشر قبل أربعة عشر قرناً عهد نزول القرآن . فإذا نظرنا إلى الكهرباء التي اكتشفت بعد مجيء القرآن بقرون كثيرة رأيناها تحتوي على سالب وموجب وباتحادهما يتولد التيار الكهربائي .

ولننتقل إلى الذرَّة ، أصغر جزء في عنصر ما ، فقد اكتشف العلماء بأنها تحوي قلباً صغيراً يسمى (النواة الذرية) يحيط بها عدد من الجسيمات الخفيفة جداً تسمى (الالكترونات) ، وهذه تحمل شحنة كهربائية سالبة ، أما النوى فتحمل شحنة كهربائية موجبة .

وهناك أمرٌ أبعد من هذا فقد استنتج رجال الطبيعة من تجارب أجروها في معاملهم : أن النواة الذرية نفسها مؤلفة من أجزاء أصغر ، فوجدوا وحدتين أساسيتين من وحدات البناء في نواة الذرة : إحداهما نواة ذرة الهيدروجين وقد أطلق عليها رجال الطبيعة اسماً خاصاً هو « البروتون » يقابله وحدة البناء الثانية التي اكتشفها في عام ١٩٣٢ العالم الانجليزي السير جيمس تشادويك وتسمى : « النيوترون » .

سعة الكون وتمدده :

قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ .

الإعجاز العلمي في هذه الآية هو قوله تعالى عن السماء : ﴿ وإنا لموسعون ﴾ يمكن أن نفهم من معنى (لموسعون) استناداً إلى اللغة معنيين : المعنى الأول اننا موسعوها منذ البداية أي عند خلقها . والمعنى الثاني : اننا موسعوها بعد خلقها أي نجعلها تتسع .

فمن ناحية المعنى الأول نرى أينشتين يتخيل سعة هذا الكون بأن يتسع لبلايين من السدم[١] وكل سديم منها يحتوي على مئات الملايين من النجوم الملتهبة[٢] .

ومن ناحية المعنى الثاني فهذا تؤيده نظرية تمدد الكون التي ينادي بها علماء الفلك حديثاً . فقد لاحظ علماء الفلك في أقصى ما يدركه المنظار علامات تدل على حركات السدم الخارجية ، حركات نظامية ، واستدلوا منها على أن جميع السدم الخارجية أو « الجزر الكونية » تبدو على أنها تتباعد عن مجموعتنا الشمسية ، بل إنها تتباعد عن بعضها البعض ، وعلى هذا الأساس فإن الكون ليس ساكناً إنما يتمدد كما تتمدد فقاعة الصابون أو كما يتمدد البالون ، ولكن الأجسام المادية فيه تحافظ على أحجامها .

وقد تقدم عدد من العلماء الكونيين بنظريات تشرح لغز الكون المتمدد منهم الدكتور هابل Habble رائد الباحثين في السدم ، فقد لاحظ أن هناك نزعة واحدة تسود هذه المجموعات النجمية الشاسعة البعد وهي : أنها أميل إلى الإدبار عنا منها إلى الإقبال ، كما لاحظ أن سرعة الإدبار تزيد بازدياد أبعاد هذه الجزر الكونية .

---

(١) السُّدُم : مجموعة هائلة من النجوم .
(٢) عن كتاب (العالم واينشتين) .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا

شرح المفردات

والطُّور : الواو للقسم ، الطور : جبل في سيناء كلَّم الله عنده نبيه موسى .

كتَابٍ مَسْطُورٍ : مكتوب على وجه الانتظام ، قيل المراد به القرآن ، أو الكتب السماوية

رَقٍّ : ما يُكتب فيه جلداً كان أو صحيفة أو غير ذلك .

منشُورٍ : مبسوط غير مختوم ، وفي متناول كل أحد .

البَيْت الْمَعْمُور : الكعبة المعمورة بالوافدين إليها من الحجاج .

السَّقْف الْمَرْفُوع : السماء المرفوعة بقدرة الله تعالى .

البَحْرِ الْمَسْجور : البحر المملوء بالماء .

تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً : تتحرك حول نفسها وتضطرب اضطراباً شديداً .

خَوْضٍ : إندفاع في الأباطيل والأكاذيب .

يُدَعُّونَ : يُدفعون .

إصْلَوْهَا : أُدخلوها وقاسوا حرَّها .

فَاصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

شــرح المفــردات

فاكهين : ناعمين متلذذين .

بِمَا آتَاهُم رَبُّهُم : بما أعطاهم ربهم .

وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ : قرناهم بنساء بيض يمتزن باتساع العيون وجمالها .

مَا أَلَتْنَاهُم مِنْ عَمَلِهِم مِنْ شَيءٍ : ما نقصناهم من ثواب أعمالهم شيئاً .

كُلُّ امْرِيءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ : كل إنسان مُرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره .

يَتَنَازَعُونَ : يتناولها بعضهم من البعض الآخر .

لا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ : لا كلام ساقط في أثناء شربها ، ولا فعل يوجب الإثم .

لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ : لؤلؤ مستور مصون في أصدافه .

مُشْفِقِينَ : خائفين من الله تعالى .

عَذَابَ السَّمُوم : عذاب النار .

البَرُّ : المحسن العطوف .

سُورَةُ الطُّور

ايضـــاح و دروس

هذه السورة في مجملها بيان لحال المؤمنين في الآخرة ، وما هم عليه من نعيم ، وبيان لحال الكافرين يومئذٍ ، وما هم عليه من عذاب .

وهذه الـسورة تشتمل على تحدٍّ للمنكرين لرسالة النبي ﷺ بأن يأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين في دعواهم بأن القرآن ليس وحياً من عند الله .

كما أن هذه السورة تُسفِّه كثيراً من آراء الكافرين الفاسدة ، ومزاعمهم الباطلة ، وتقدم دليلاً منطقياً على وجود الله يخرس الألسنة ، ويبهر العقول .

إستهل الله هذه السورة بالقسم بخمسة أمور فيها دلالة على عظيم قدرته ، وبديع صنعه ، لتأكيد وقوع العذاب بالكافرين يوم البعث والجزاء .

ووقوع القَسَم في مستهل السورة له أثره النفسي في إثارة الانتباه والتأثير على المستمع . يقول تعالى :

﴿ وَالطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ . فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ . وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ . وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ . وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ (١ - ٨) .

﴿ وَالطُّورِ ﴾ الواو للقسم . الطور : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وآتاه التوراة ، ويسمى طور سيناء ، وموقعه في مصر بين خليج السويس وخليج العقبة . والله يقسم بالطور تعظيماً له وبياناً لأهميته ، وإشعاراً بأن الإسلام ليس ديناً جديداً ، بل هو دين متمم للأديان

الـسماوية السابقة ، ومصحح لما طرأ عليها من تحريف وتبديل .

﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ أي وأقسم بكتاب مكتوب على وجه الانتظام بسطور مصفوفة . وقد اختلف في المراد (بالكتاب المسطور) ، فقيل إنه القرآن ، وقيل إنه التوراة التي أُنزلت على موسى ، وقيل إنه كتاب أعمال الإنسان يأخذه بيمينه يوم القيامة أو بشماله حسب ما يُقدّم فيه المرء من حسنات أو سيئات .

﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ الرق هو الجلد الرقيق المبسوط الذي يكتب فيه ، وقد كان الرق قديماً يستعمل للكتابة قبل أن يكتشف الورق الذي يستعمله العالم في أيامنا هذه ، ﴿ منشور ﴾ أي مبسوط غير مختوم ، أو بمعنى المنتشر ، والمراد أنه في متناول كل من يُريد قراءاته .

﴿ وَالبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ الكعبة المشرّفة ، وهذا البيت يعمره الله بالوافدين إليه من الحجّاج ليلاً نهاراً في كافة أيام السنة . وقيل إن المراد بالبيت المعمور بيت في السماء حيال الكعبة « أي بمحاذاتها » يدخله كل يوم سبعون ألف ملك من الملائكة يطوفون به كما يطوف الحجيج بالكعبة ثم يخرجون فلا يعودون إليه ، وفي هذا إشارة إلى كثرة ملائكة الله الذين يُسبّحون بحمد ربهم .

﴿ والسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ هو السماء باعتبارها سقفاً للأرض ، والقسم بها فيه لفت للنظر إلى عظمة مبدعها ، وقدرته المسيطرة على هذا الكون ، وقد جاء في القرآن : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً ﴾ الأنبياء : ٣٢ .

﴿ وَالبَحْرِ المَسْجُورِ ﴾ هو البحر المملوء بالمياه ، والبحر هو مصدر الماء العذب الذي ينزل من السحاب بعد تبخره منه ، وبه حياة الكائنات النباتية والحيوانية جميعها ، وبدون الماء لا حياة على الأرض ، فالقسَم

بالبحر فيه لفت للأنظار إلى قدرة الله العظيمة ، وتذكير بفضله على الكائنات الحية . ويأتي المسجور بمعنى المضرم بالنار ويكون ذلك يوم القيامة .

هذه الأمور الخمسة المقسم بها يراد منها بيان قدرة الله تعالى ، وإثارة الخشوع له وتنبيه الأسماع إلى الأمر الهام المقسم به وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ أي إن عذاب الله كائن لا محالة في الآخرة ولا مهرب منه ، وهو واقع على من يستحقه ، لا دافع يدفعه عنه إذا وقع ولا مردّ له .

ثم يتابع القرآن فيذكر بعض مظاهر القيامة ، وما يحدث فيها من تغييرات في الكون إعلاناً بانتهاء الحياة الدنيا ، وانتقالاً إلى عالم آخر مع بيان المصير السيِّىء الذي ينتظر الكفار المكذبين بالإسلام :

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً . وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْراً . فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ . يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ (٩ ـ ١٦) .

فالسماء تمور موراً أي تتحرك وتدور دوراناً حول نفسها ، ويموج بعضها في بعض ﴿ وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْراً ﴾ أي تقتلع وتنتقل من أماكنها ثم تقع على الأرض مفتتة[١] ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي الويل والهلاك يومذاك للمكذبين بالبعث ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ[٢] يَلْعَبُونَ ﴾ أي الذين كانوا يخوضون في الكلام عن محمد بالتكذيب والاستهزاء وهم في باطلهم يلهون

---

(١) جاء في القرآن عن مصير الجبال يوم القيامة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ .
(٢) الخوض : في أصل اللغة الدخول في كل شيء ثم غلب استعماله في الدخول في الباطل .

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ أي يوم القيامة يُدفع المكذّبون إلى نار جهنم بعنف وشدة ، فإذا دنوا منها قالت لهم الملائكة الموكّلون بعذاب الكفرة على سبيل التوبيخ والتقريع : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ثم يُقال لهم زيادة في التوبيخ : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُم لا تُبْصِرُونَ ﴾ أي أهذا الذي ترونه من النار سحر خادع كما كنتم تسمون القرآن أم أنتم اليوم عُمي كما كنتم عمياً عن رؤية الصواب في الدنيا ، ﴿ إِصْلَوْهَا ﴾ أي ادخلوا النار وقاسوا حرّها ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي فصبركم على عذابها أو عدم صبركم سيّان في عدم النفع لكم ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ إنكم ستُعاقبون بسبب ما عملتم في دنياكم من السيئات .

وبعد أن بيَّن القرآن حال الكافرين ومصيرهم السيِّىء يوم القيامة ، أردف ذلك بذكر حال المؤمنين ونعيمهم في الآخرة :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ . فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ . مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ (١٧ - ٢٠) .

فالمتقون الذين آمنوا بالله ، وبما جاء من عند الله على لسان رسوله محمد ﷺ وامتثلوا أوامر الله ، واجتنبوا نواهيه هم ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ أي في بساتين ونعيم، بما يتمتعون به من مأكل ومشرب وملبس . ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ أي عندهم فاكهة كثيرة ، أو بمعنى : مسرورين مغتبطين ﴿ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ بما أعطاهم ربهم من صنوف النعيم والفاكهة ﴿ وَوَقَاهُم رَبُّهُم عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ وجنبهم ربهم عقابه الذي عذّب به أهل الجحيم ، وهذا مبعث لاغتباط عظيم لهم ، ثم يُقال لهم : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ أي كلوا واشربوا هنيئاً بدون تنغيص ولا كدر ، إن ذلك النعيم هو

ثواب ما كنتم تعملون في الدنيا من أعمال صالحة ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ﴾ فهم جالسون جلسة مريحة مسندين ظهورهم على سرر[1] جُعِلَتْ صفوفاً ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي جعل الله لهم أزواجاً من حور عين ، والحور : جمع حوراء ، وتطلق على المرأة البيضاء ، وعلى المرأة الشديدة بياض العين مع شدة سواد الحدقة ، وعِين : جمع عيناء ، وهي ذات العينين الواسعتين في حسن وجمال .

ثم يذكر القرآن الكريم ما خصَّ الله به المؤمنين في الآخرة من نعيم ، وهو جمعهم مع ذريتهم على صعيد واحد في الجنة لتقر أعينهم بهم ، ولكن شرط أن تشاركهم ذريتهم في الإيمان والعمل الصالح :

﴿ والَّذِينَ آمنوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنا بِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِم مِنْ شيءٍ كُلُّ امْرِىءٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٢١) .

أي والذين آمنوا واستحقوا درجات عالية في الجنة بسبب أعمالهم الصالحة ، وشاركتهم ذريتهم في الإيمان ، ولكنهم كانوا دونهم في العمل الصالح ، ولم يبلغوا درجات الآباء في الثواب ، ألحقهم الله بآبائهم لتقرّ أعين الآباء بهم ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم ﴾ أي وما أنقص الله الآباء شيئاً من ثواب أعمالهم ، ولا يحمل الآباء شيئاً من أخطاء ذريتهم ﴿ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي كل إنسان مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً .

ويتابع القرآن ذكر ما خص الله به المؤمنين من نعيم أيضاً :

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . يَتَنَازَعُون فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا

---

(١) سرر : جمع سرير وهو الذي يُجلس عليه أو يضطجع عليه

وَلَا تَأْثِيمٌ . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ . وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ . فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ . إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٢ ـ ٢٨) .

وأعطى الله المؤمنين زيادة على ما سلف فاكهة ولحماً من الأصناف التي تشتهيها نفوسهم وهم ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً ﴾ أي يتعاطون كؤوس الشراب ويتداولونها فيما بينهم ، والكأس هو الإناء المملوء بالخمر . وهذه الكؤوس ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي لا يصاحب شُربها قول باطل ﴿ وَلَا تَأْثِيم ﴾ ولا فعل آثم يشين صاحبه ، وقد أعطى الله هذا الوصف للخمر في الآخرة احترازاً عن مواصفاتها في الدنيا حيث هي من فعل الشيطان ، وتفضي بشاربها إلى قول اللغو وفِعل الإثم .

ويطوف على المؤمنين بالكؤوس والفواكه واللحوم ﴿ غِلْمَانٌ لَهُم كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ أي خدم في مقتبل العمر صِباح الوجوه ، وهم في حسنهم كاللؤلؤ المخبوء في أصدافه من حيث البياض والصفاء . ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي أخذ المؤمنون يسألون بعضهم بعضاً عن سبب هذا النعيم الذي أغدقه الله عليهم ، ويأتي جواب المؤمنين : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا ﴾ أي كنا في الحياة الدنيا بين أهلينا ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين من عذاب الله ، ويحتمل أن تكون مشفقين من الشفقة وهي الرفق والرحمة أي نرفق بأهلنا وغيرهم ، والشفيق : الناصح الحريص على صلاح المنصوح . ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فتفضّل الله علينا بعطائه هذا ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ أي صرف عنا عذاب النار ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي كنا في الدنيا نوحّده ونخلص له العبادة والدعاء ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ إنه العطوف على عباده ، المحسن إليهم ، العظيم الرحمة بهم .

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا

شرح المفردات

فَذَكِّرْ : أي فَذَكِّر يا محمد بالقرآن قومك ، وعِظهم به .

بِنِعْمَةِ رَبِّكَ : بإنعام الله عليك بالنبوة .

بِكَاهِنٍ : هو الذي يخبر بالغيب اعتماداً على الظن عند العرب في الجاهلية .

نَتَرَبَّصُ : ننتظر .

رَيْبَ الْمَنُونِ : حوادث الدهر المؤدية إلى الموت .

أَحْلَامُهُم : عقولهم .

طَاغُونَ : متجاوزون الحد في العناد والكفر .

تَقَوَّلَهُ : إختلق القرآن وافتراه من عند نفسه .

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ : فليأتوا بكلام مماثل للقرآن .

خَزَائِنُ رَبِّكَ : خزائن رزقه ورحمته .

الْمُصَيْطِرُونَ : المسلطون الجبّارون ، أو الأرباب .

سُلَّمٌ : مرقى إلى السماء يصعدون به (درج) .

بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ : بحجة واضحة .

فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾
أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا
يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى
فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

شَرح المفردات

مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ : منْ غرامة مالية تُثقل كاهلهم .

يُرِيدُونَ كَيْداً : يريدون بك المكر وتدبير السوء ليهلكوك .

الْمَكِيدُونَ : المعاقبون بكيدهم ومكرهم .

كسفاً : قطعاً .

سَحَابٌ مَرْكُومٌ : سحاب متراكم بعضه فوق بعض .

يُصْعَقُونَ : يموتون .

لا يُغْنِي عَنْهُمْ : لا يدفع عنهم .

فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا : في حفظنا وحراستنا .

سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ : نزِّه ربك حامداً له .

إِدْبَارَ النُّجُوم : وقت مغيبها بضوء الصباح .

تَابع سُورَةِ الطُّور

وبعد أن بيَّن الله مصير الكافرين ومصير المؤمنين في الآخرة ، أمر الله النبي ﷺ بالثبات على دعوته ، وأن لا يكترث للتهم الباطلة التي يرميه بها قومه ، ومنها الكهانة والجنون :

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٢٩) .

فالله يأمر نبيه بالمداومة على التذكير والوعظ ، لأنه سبحانه بما أنعم عليه من النبوة ورجاحة العقل ليس بكاهن ولا مجنون ، بل رسول من رب العالمين .

فالكاهن هو رجل الدين عند العبرانيين ، أما الكاهن عند العرب قبل الإسلام فله مواصفات خاصة فهو المتنبىء بالغيب المخبر للناس بما قد يحدث لهم في المستقبل بما يزعم من اتصال له بالآلهة والأرواح ، وهو أيضاً الطبيب الذي يصف الدواء .

والكهان لهم أسلوب خاص في الكلام يعرف بالإغراق في استعمال السجع ، وبالإفراط في استعمال الكلام الغامض . وقد كان للكهان أثر كبير في حياة العرب قبل الإسلام فكان الناس يستشيرونهم في إبرام الأمور المهمة ، وكان هؤلاء الكهان يتقاضون أجراً مقابل ذلك ، لأن الجن والشياطين التي توحي إليهم بالأجوبة ـ في زعمهم ـ لا ترضى بالتنبؤ إلّا إذا رأت أجر التنبؤ ويقال له : « حلوان الكاهن » عندهم[1] .

فالكهان في جزيرة العرب لم يكونوا يدعون الناس إلى عبادة الله وحده ، ومكارم الأخلاق ، ومحاربة الشرك والفساد ، والامتناع عن الآثام

---

(١) باختصار عن كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي .

كما كان يدعو النبي ﷺ ، كما أن النبي لم يتقاضَ أي أجرٍ على دعوته كما كان يفعل الكهان . كل هذا ينفي نفياً قاطعاً تهمة الكهانة عن النبي ﷺ .

أما تهمة الجنون فهي تهمة تدل على إفلاس المشركين في محاربة النبي ﷺ إذ وصفوه بصفة هي أبعد ما تكون عنه ، وهي نفس التهمة التي ألصقها بعض أعداء الإسلام بالنبي ﷺ حديثاً ، فوصفوا الوحي بأنه حالة صرع كانت تصيبه . هؤلاء نقول لهم : إن مواضيع الهذيانات الهستيرية لا تخرج عادة إلّا عن تصورات وهمية تتناسب مع الأعصاب المتعبة المريضة ، كتخيل المريض رؤية روح شريرة تتوعده بالأذى أو تتقصده بالقتل أو تقلقه بالاستهزاء ، ولم يُشاهد هذيان هستيري يشتمل على العلوم الإلّهية ، وقوانين الفضائل والآداب ، وقواعد التشريع السياسي والمدني وغيرها من الأصول التي أتى بها محمد ﷺ من عند الله بواسطة الوحي ، والتي أسهب العلماء في شرحها وبيان مزاياها في ألوف المجلدات .

وبعد أن سقطت تهمة الكهانة والجنون ، تصوره البعض شاعراً بما أتى به من القرآن الكريم وهذا ما حكاه الله على لسانهم :

﴿ أم يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ (٣٠ ـ ٣١) .

والمعنى : بل يقولون عن النبي ﷺ إنه شاعر ، ننتظر به نزول الموت ، هنا يخاطب الله النبي ﷺ بقوله : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي معكم مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أي انتظروا موتي فإني معكم منتظر هلاككم . وهذا الأسلوب فيه تهكم بهم مع التهديد والوعيد .

هنا تتجلى إحدى معجزات القرآن ، فهذه السورة من أوائل ما نزل من القرآن ، وقد كان المناوئون للنبي أكثر عدداً ، وأقوى شكيمة ، فما هي إلا

سنوات قلائل حتى هلك المناوئون للدعوة الإسلامية ، وانتصر النبي ﷺ على كل من عاداه واضطهده وعمّ الإسلام كل جزيرة العرب .

وتهمة وصف النبي ﷺ بأنه شاعر هي أضعف التهم ، فما كان محمد ﷺ شاعراً ولم ينظم بيتاً واحداً من الشعر طوال عمره ، فللشعر موضوعات يطرقها الشعراء وأوزان يتقيّدون بها . فالقرآن ليس شعراً ، وهذا واضح فهو لم يُقيّد بقيود الشعر ولا بأوزانه ، وليس نثراً عادياً لأنه مقيد بقيود خاصة لا توجد في غيره ، وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بعضاً بأواخر الآيات ، وبعضها بتلك النغمة الصوتية الخاصة به[1] .

أمام هذه المزاعم الباطلة يتساءل القرآن :

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (٣٢) .

لقد كان شيوخ قريش يُلقبون بذوي الأحلام « أي العقول » إشارة إلى رجاحة عقولهم ، وحكمتهم في تصريف الأمور ، فالقرآن يتهكم بهم وبعقولهم لأن موقفهم من النبي ﷺ ينافي الحكمة والعقل فلو كان عندهم حكمة وعقل لما اتهموا النبي بتلك التهم الباطلة ، إنهم بموقفهم هذا من

---

(١) « كما أن القرآن لم يشارك الشعر الذي ألفه العرب في قليل أو كثير من موضوعاته ومعانيه ، فهو لا يصف الأطلال والربوع ، ولا يصف الحنين إلى الأحبة ، ولا يصف الإبل في أسفارها الطوال والقصار . . . وليس فيه غزل ولا فخر ولا مدح ولا هجاء ولا رثاء . . . وإنما يتحدث إلى الناس عن أشياء لم يتحدث عنها أحد قبله ، يتحدث عن التوحيد فيحمده ويدعو إليه ، ويتحدث عن الشرك فيذمّه وينهى عنه ، ويتحدث عن الله فيعظّمه ويصف قدرته التي لا حدّ لها . . . وإرادته التي لا تُرد ، وخلقه للسماوات والأرض وما فيهن من يسير الأشياء وخطيرها ، ومن صغير الأشياء وكبيرها . ويدعو الناس إلى عبادة الله والائتمار بما يأمر به ، والانتهاء عما ينهى عنه ، والتنزّه عما لا يليق بكرام الناس . . . وهو يبشر المؤمنين بما أعد لهم من نعيم وينذر الكافرين بما ادخر لهم من جحيم . . . » (عن كتاب مرآة الإسلام للدكتور طه حسين) .

النبي ﷺ ﴿ قَوْمٌ طَاغُون ﴾ أي متجاوزون الحد في الكفر والعناد .

ولم يقتصر تطاول قريش على النبي ﷺ عند هذا الحد ، بل اتهموه بالكذب حين ادعوا أنه اختلق القرآن وأنه ليس وحياً من عند الله :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانوا صَادِقِينَ ﴾ (٣٣ ـ ٣٤) .

والتقوّل لا يستعمل إلاّ في الكذب ، فهم يقولون : إنه اختلق القرآن ، بل هم لمكابرتهم لا يؤمنون ، فعدم تحسسهم بالإيمان هو الذي أملى عليهم هذا الافتراء ، ولو تخلوا عن كبريائهم ، وأمعنوا بالقرآن إمعان عقل وفكر لأدركوا أن القرآن ليس من تأليف بشر .

وهذه التهمة يرددها في العصر الحاضر كثير من أعداء الإسلام لتشويهه والتنفير منه ، ولكن القرآن قَدَّم أعظم رد على هؤلاء جميعاً في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، وهذا الرد هو في غاية البساطة هو تحدّيهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ أي فليأتوا بكلام مماثل للقرآن في نظمه وبيانه وهديه ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في ادعائهم أن محمداً قد اختلق القرآن .

إن محمداً ﷺ لم يخرج عن كونه بشراً مِنْ عِداد قومه الذين اشتهر كثير منهم بالفصاحة والبيان ، ولمع فيهم شعراء عديدون فطاحل . هذا وإن محمداً ﷺ لم يشتهر في قومه قبل النبوة بالفصاحة والبيان ، ولم يكن من عداد شعرائهم وبُلغائهم ، فالأمر كما نرى في غاية السهولة عليهم فليؤلفوا إذن مثل هذا القرآن ما دام أنه من تأليف محمد على حدّ زعمهم .

حار الكفار في أمرهم لا يدرون كيف يأتون بكتاب مثل القرآن ، حاولوا أن

يردوا على هذا التحدي فعجزوا ، ولذا نرى القرآن يخاطبهم في هذا الأمر بما جاء في سورة الإسراء : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ الآية : ٨٨ .

ومضى القرآن خطوة أخرى عندما ظهر عجزهم ، فلم يطالب بمثل مجمل القرآن ولكن طالب بالإتيان بعشر[١] سُوَرٍ مثله ، وهذا ما جاء في سورة هود الآية ١٣ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ[٢] قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ .

أمام هذا التحدي أيضاً لم يستطع أحد من المناوئين للنبي ﷺ الإتيان بمثل عشر سُوَرٍ من القرآن :

ثم مضى القرآن بعد ذلك خطوة ثالثة قاصمة ، فتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة مثل سور القرآن ، وهذا أقصى غايات التحدي : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنَا[٣] فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم[٤] مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ـ وَلَنْ تَفْعَلُوا ـ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة : ٢٣ .

إن تسجيل القرآن لعجزهم بقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ، وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ في الحاضر والمستقبل ، وعدم استطاعة أحد من كتّاب العرب ، وبلغائهم وشعرائهم مجاراة القرآن ـ قديماً وحديثاً ـ في بلاغته وهديه لهو برهان مفحم قاطع على كون القرآن وحياً إلّهياً ليس بعده برهان .

هذا مع العلم أن بلغاء العرب كثيرون ، ومنهم من كان لا يدين بالإسلام

---

(١) عدد سور القرآن مئة وأربع عشرة سورة .

(٢) افتراه : اختلقه من عنده .

(٣) عبدنا : أي محمد ﷺ .

(٤) شهداءكم : أعوانكم ونصراءكم .

ويضمر العداوة له . فلو وجدوا في بلاغة القرآن منفذاً من ضعف لجاهروا بذلك ، ولو استطاعوا مجاراة القرآن في بلاغته لفعلوا .

فالقرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي آتاها الله رسوله الكريم محمداً ﷺ آية وبرهاناً على صدقه فيما يبلِّغ عن ربه .

وبعد أن أثبت القرآن صدق نبوة محمد ﷺ وأن القرآن الذي جاء به هو وحي إلَهي ، انتقل إلى الرد على الذين يُنكرون الخالق كما هو شأن الدهريين والملحدين :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ[1] . أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٣٥ ـ ٣٦) .

هذا النص القرآني على إيجازه فيه كل ما توصّل إليه الفكر الحديث لإثبات وجود الله ، فالعقل البشري في كل زمان ومكان يرتكز على قاعدة أساسية هي في حكم البديهيات وهي : أنه لا بد لكل مصنوع من صانع أو بالأحرى لا بد لكل مخلوق من خالق ، وقديماً قال أرسطو : لا بد لكل متحرك من محرك .

فالقرآن يقول : هل خُلِقوا من غير خالق[2] أوجدهم وخلقهم ؟ أم هم

---

(١) هذه الآية لما سمعها أحد المشركين في عهد النبي ﷺ كانت من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام .

(٢) يقول الدكتور بول كليرانس أبرسولد : إن الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة ، هو أن الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشأ هكذا نشأة ذاتية من العدم المطلق ، بل إن لهما بداية ، ولا بد لكل بداية من مبدىء ، كما أننا نعرف أن هذا النظام الرائع المعقد الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان ، وأن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية ، كما أن وراءها توجيهاً وتدبيراً خارج دائرة الإنسان ، إنها بداية مقدسة ، وتوجيه مقدس ، وتدبير إلهي محكم » . (نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم) .

الذين خلقوا أنفسهم ، ولو تصورنا على سبيل المكابرة والمغالطة أنهم خلقوا أنفسهم ، فهل هم الذين خلقوا السماوات والأرض ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وإذا كان هذان الفرضان يرفضهما منطق العقل والواقع ، ولا يمكن أن يدعي بذلك أحد ، فإنه لا يبقى إلاّ الحقيقة التي يقولها القرآن : وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق .

فالعالم العلوي وما فيه من نجوم وكواكب ، والعالم الأرضي وما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، والترابط الوثيق بين هذه العوالم ما هو إلاّ برهان قوي على وجود الله ، لأن العقل لا يتصور أن توجد هذه الأشياء بدون موجد ، كما لا يتصوّر أن توجد الصنعة بدون صانع ، ولكن رغم هذه الأدلة فإن الملحدين ﴿ لا يُوقِنُون ﴾ أي لا يصدقون بوجود الله ووحدانيته ، وقدرته على البعث .

ثم يتابع القرآن سلسلة التساؤلات التي بدأها مع الكفار والتي لا تُبقي لهم أدنى حجة في استمرارهم على الكفر .

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُون . أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ (٣٧ ـ ٣٩) .

أي أعندهم خزائن رزق الله ورحمته حتى يُعطوا النبوة من شاءوا ويمنعوها عمن أرادوا ؟ أم هم الأرباب فيفعلون ما شاءوا ولا يكونون تحت أمر ولا نهي .

أم لهم سلَّم يرتقون فيه إلى السماء يسمعون الوحي فيدعون أنهم سمعوا هنالك أن الذي هم عليه هو الحق ؟ وإذا كان الأمر كذلك فليأتِ

مستمعهم بحجة تبين أنه على حق . ثُمَّ سفّه الله عقولهم حيث اعتبروا الأصنام إناثاً ، وأنهن بنات الله ـ تنزه الله عن الولد ـ هذا مع كرههم للبنات ، فكيف ينسبون إلى الله ما يكرهونه لأنفسهم .

ويتابع القرآن سلسلة التساؤلات التي بدأها مع الكفار فيقول سبحانه :

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُم أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ . أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ . أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ . أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ (٤٠ ـ ٤٤) .

فالله سبحانه يقول لنبيه : أتطلب منهم أجراً على ما جئتهم به من شريعة الإسلام ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ فهم متعبون مثقلون عن دفع تلك الغرامة فلذلك يكرهون اتباعك ، فإذا كنت يا محمد لا تطلب من قومك أجراً[١] ولا غرامة فلماذا يقفون منك هذا الموقف من العناد وعدم الإذعان لما جئت به من الهدى ؟ ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أم يدَّعون أن عندهم عِلْمَ الغيب حتى علموا أن ما تخبرهم به من أمْر القيامة والبعث هو باطل ، فهم بذلك يكتبون ما اطَّلعوا عليه ويخبرون به الناس . ﴿ أم يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ أم يريدون مكراً بك يا محمد للقضاء عليك ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أي فالذين كفروا هم المجزيون بكيدهم .

وقفة قصيرة عند قوله تعالى : ﴿ فالَّذِين كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ هذا النص القرآني من الأنباء الغيبية التي تحقق وقوعها بعد فترة قصيرة من نزول الوحي بها في مكة مما يشهد أن القرآن وحي إلهي . فقد تآمر على قتل

---

(١) هنا درس يقدمه القرآن للدعاة بأن يمتنعوا عن أخذ الأجر جزاء لما يقومون به من دعوة إلى الله إذا كانوا في كفاية مادية .

النبي ﷺ وجهاء قريش في دار الندوة يوم هجرته إلى المدينة فنجى الله نبيه من القتل ، وبعد ذلك وقعت غزوة بدر فقتل فيها أكثر المتآمرين على قتل النبي ﷺ ، وتتابعت انتصارات النبي حتى دانت له كل جزيرة العرب ، فلو كان القرآن من تأليف محمد لما حكم بهذا الحكم القاطع بهزيمة أعدائه في وقت كان يستعد فيه للهجرة إلى يثرب (أي المدينة المنورة) خوفاً من بطش كفار قريش ، ولم يكن أتباعه آنذاك إلاّ قلة لا يُعتَدُّ بقوتهم .

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ ﴾ أم يَدَّعون أن لهم إلهاً غير الله يرزقهم وينصرهم ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس عمَّا يُشركون به من الأوثان والأصنام . ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً ﴾ كسفاً : جمع كسفة وهي القطعة من الشيء . ﴿ يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ مركوم : أي متراكم بعضه فوق بعض . والمعنى المراد : أي لو عذَّبهم الله بسقوط قطع من السماء تنزل عليهم لم ينتهوا عن كفرهم ، بل يقولون : هو سحابٌ متراكم بعضه فوق بعض عناداً منهم أن يسلّموا بالحق ، وهذا ردٌّ على كفار قريش الذين طلبوا من النبي ﷺ دليلاً على نبوته بقولهم بما ذكره القرآن : ﴿ أو تُسْقِطَ السَّماءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ الإسراء : ٩٢ . فأخبر الله تعالى رداً عليهم : أنهم لو رأوا ذلك عياناً حسب اقتراحهم لبلغ بهم العناد أن يُغالطوا أنفسهم فيما شاهدوه ويعاندوا ويقولوا سحاب متراكم .

وأخيراً بعد أن تبين موقف الكافرين المبني على المكابرة والعناد يدعو الله النبي ليهمل أمرهم ، ويعرض عنهم حتى يأتيهم عقاب الله مع الوعد له بالتأييد :

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذي فِيهِ يُصْعَقُون . يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ . وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمونَ ﴾ (٤٥ ـ ٤٧) .

أي فدعهم يا محمد غير مكترث بكيدهم حتى يُلاقوا اليوم الذي فيه ﴿ يُصْعَقُونَ ﴾ أي يهلكون وهو يوم القيامة حين لا يدفع عنهم كيدهم ولا مكرهم شيئاً من العذاب ولا هم يجدون ناصراً لهم ، وإذا كانوا في دنياهم يلجأون إلى الكيد والمكر والخداع فإنهم في ذلك اليوم لا ينفعهم كيد ولا يأخذ بيدهم نصير . ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي أن لهؤلاء الكفار عذاباً قبل يوم القيامة تتركه الآية بلا تحديد ، قد يكون عذاب الخزي في الدنيا كما حصل للكافرين يوم غزوة بدر وقد يكون عذاب القبر أو مصائب الدنيا ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك .

وبعد أن بين القرآن المصير القاتم الذي ينتظر الكافرين يأتي الخطاب من الله للنبي ﷺ بالصبر ، مع الوعد له بالتأييد والحفظ ، وأن يظل قلبه موصولاً بربه في الليل والنهار :

﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك حِينَ تَقُومُ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ (٤٨ ـ ٤٩) .

فاصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه إلى أن يصيبهم العذاب الذي حذرناهم منه ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منا وفي حفظنا ورعايتنا ، وهذا التعبير يبعث الراحة في القلب ، والاطمئنان في الضمير ، والعزيمة في مسيرة الجهاد .

كلمة : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ هي ما يجب أن يستشعره كل داعية إلى الله عندما يحيق به الأذى والمكروه من قومه ، فيعلم أنه بمرأى من الله ورعايته وتأييده وكفى بذلك عزاء وتثبيتاً لقلب الداعي إلى الله ، وهو عزاء عظيم تتضاءل أمامه كل الصعاب والأهوال والاضطهاد .

أمام هذا الوعد الإلّهي بالحفظ يأتي ختام السورة داعياً إلى ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ليظل القلب موصولاً بالله ، هادياً للدرب ، مطمئناً للقلب ﴿ فَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي نزّه ربك عن كل ما لا يليق به متلبساً بحمد ربك على إنعامه عليك ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي من مجلسك أو من منامك ، أو حين تقوم إلى الصلاة ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَار النُّجُوم ﴾ أي وسبحه في ثنايا الليل وعند غروب النجوم ، وهو آخر الليل ووقت صلاة الفجر . وقيل : التسبيح يراد به صلاة المغرب والعشاء، وإدبار النجوم : صلاة الفجر .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ

شرح المفردات

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى : قَسَمٌ بالنجم إذا غرب وسقط .

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم : ما حاد محمد ﷺ عن طريق الحق والهدى .

مَا غَوَى : ما جَهل ولا اعتقد باطلاً قط .

وَمَا يَنْطِقُ : ما يلفظ من القرآن الكريم .

عَنِ الْهَوَى : عن هوى نفسه ورأيه الشخصي .

إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى : إن ما ينطق به من القرآن الكريم ما هو إلاّ وحيٌ من الله .

شَدِيدُ الْقُوَى : مَلَك عظيم القوة ، وهو جبريل .

ذو مِرَّةٍ : ذو رأي ، وعقل بالغ ، وقوة .

فاسْتَوَى : علا وارتفع وظهر على صورته الأصلية .

بالأُفُقِ الأَعْلَى : أفق السماء من جهة المشرق .

دَنَا : قَرُبَ .

فَتَدَلَّى : زاد في القُرْب ، أو نزل .

قَابَ قَوْسَيْنِ : مقدار قوسين أو ذراعين من النبي ﷺ .

فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى : فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد الوحي الإلهي .

ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ

شَــرح المفــرَدَات

مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى : ما أنكر قلب النبي ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل .

أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى ما يَرَى : أتكذبون يا معشر قريش محمداً فيما رآه وتجادلونه بالباطل

نَزْلَةً أُخْرَى : مرة أخرى .

سِدْرَة المُنْتَهى : شجرة نبق عن يمين العرش تنتهي إليها علوم الخلائق .

جَنَّةُ المَأْوَى : الجنة التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء .

يَغْشَى السِّدْرَةَ : يغطيها ويسترها ، والغاشي لها نور الله .

مَا زَاغَ البَصَرُ : ما مال بصر محمد يميناً ولا شمالاً .

وَمَا طَغَى : ما جاوز ما أُمر برؤيته .

لَقَدْ رَأَى : رأى ليلة عُرِجَ به إلى السماء .

مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرَى : بعضاً من مظاهر عظمة الله وقدرته .

اللاَّت والعُزَّى وَمَنَاةَ : أصنام من حجارة كان المشركون يعبدونها في الجاهلية .

ضِيزَى : جائرة غير عادلة .

سُلْطَان : حُجة وبُرهان .

تَهْوَى الأَنْفُس : تميل إليها النفوس .

ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

شَــرح المفــردَات

أم للإنسانِ مَا تَمَنَّى : ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه .

الأولى : أي الحياة الدنيا .

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ : وكثير من الملائكة .

لا تُغْني : لا تنفع ولا تفيد .

لَيُسَمُّونَ المَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثى : يزعمون أن الملائكة إناث ، وأنهن بنات الله .

فَأعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا : فاترك من ابتعد عن القرآن أو عن ذِكْرِ الله .

مَبْلَغُهُم مِنَ العِلْمِ : منتهى ما وصل إليه علمهم .

ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ : حاد عن دينه .

سُورَةُ النَّجْمِ

ايضــاح و دروس

موضوع هذه السورة التأكيد على صدق نبوة محمد ﷺ ، وأنه تلقّى الوحي الإلّهي من ربه بواسطة الملك جبريل الذي رآه النبي ﷺ على صورته الأصلية ، كما تبيّن هذه السورة تفاهة عقول الذين يعبدون الأصنام من العرب في الجاهلية ، وفي بدء الدعوة الإسلامية ، كما تتحدث هذه السورة عن وجود اليوم الآخر حيث تُجزى كل نفس بما كسبت . وأخيراً تعرض قدرة الله في الأنفس والكون ، وفي إهلاك الأمم الظالمة .

تستهل هذه السورة بقوله تعالى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (١ ـ ٤) .

والنجم : الواو للقسم ، والنجم المقصود في الآية هو جنس النجوم الموجودة في السماء . ومعنى هوى : غرب أو سقط ، فغروب النجوم نراه ويحصل في دنيانا ، أما السقوط فإنه يحصل يوم القيامة ، وقد بيّن القرآن مصير النجوم يوم القيامة : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَت ﴾ التكوير : ٢ . أي تساقطت وتهاوت .

والحكمة من القسم بالنجم ما يرمز إليه هذا القسم من الدعوة إلى التأمل بالنجوم توصلاً إلى استشعار عظمة الخالق ، ولما كان من المشركين من يعبدها ، قرن بها وصفاً يدل على أنها لا تستحق العبادة لأنها غاربة يومياً ، وساقطة يوم القيامة .

وجواب القسم هو قوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ أي الأمر الذي أراد الله أن يؤكده في أذهان السامعين من قريش وسواهم هو أن محمداً ﷺ ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ أي ما انحرف ولا حاد عن طريق الحق الذي اشتهر به بينهم . ولقد كان محمد ﷺ قبل النبوة مشهوراً بالصدق والأمانة حتى أطلقوا عليه اسم « الأمين » فلم تُعرف عنه جريمة ، ولا خصلة ذميمة ، ومن كانت حياته الأولى كلها طُهراً فكيف ينقلب بعد سن الأربعين إلى ضدها ، وهي السن التي جاءه فيها الوحي الإلّهي .

ولفظ ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ المراد به محمد ﷺ ، والتعبير بالمصاحبة دون التلفظ باسمه للإعلام بأنهم واقفون على تفاصيل حياته ، عالمون ببراءته من الضلال والغيّ ، فإن طول صحبتهم له ، ومشاهدتهم لمحاسن أخلاقه يستدعي عدم تكذيبه .

﴿ وَمَا غَوَى ﴾ أي ما اعتقد باطلاً ، لأن الغيَّ هو الجهل مع اعتقاد فاسد ، وهو خلاف الرشد ، بينما الضلال هو في مقابلة الهدى .

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ﴾ أي أن القرآن الذي يتلوه ليس من هوى نفسه أو رأيه الشخصي ﴿ إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ وإنما هو من عند الله وحي يُوحى . والوحي هو ما يُبَلِّغه الله إلى أنبيائه من الشرائع بواسطة الملك جبريل .

ويتابع القرآن فيبيّن بعض صفات المَلَك جبريل الذي علّم محمداً القرآن :

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ (٥ ـ ١٢) .

فمحمد علَّمَهُ الوحيَ مَلَكٌ شديد القوى ، هو الملك جبريل عليه السلام ، وكان رسولاً بينه وبين الله عَزَّ وجل . وجبريل ﴿ ذو مِرَّةٍ ﴾ أي ذو حصافة في عقله ومتانة في دينه أو ذو خلْقٍ ومنظر حسن ﴿ فاسْتَوَى ﴾ أي علا وارتفع وتجلّى بصورته الأصلية ﴿ وَهُوَ بالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ أي بالجهة العليا من السماء جهة أُفق مشرق الشمس .

فلقد كان جبريل يتمثل للنبي ﷺ إذا جاءه بالوحي في صورة رجل ، وأَحَبَّ النبي مرة أن يراه على حقيقته فتجلى جبريل بصورته الأصلية فعلا في أفق المشرق فملأه .

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ دنا : أي اقترب من النبي ﷺ . وتَدَلَّى : نزل وزاد في القرب منه . والذي دنا وتدلّى هو جبريل الذي نزل إلى النبي بعد استوائه بالأفق الأعلى .

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ والقاب هو المقدار ، والقوس هو سلاح كان يُستعمل في القديم ، وربما سمى العرب الذراع قوساً ، أي اقترب جبريل من النبي ﷺ مسافة تُقدَّر بقوسين أو ذراعين أو أقل من ذلك ، والمراد إفادة شدة القرب منه .

﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ أي فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أمره الله به من الوحي الإلّهي .

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ أي ما أنكر قلب محمد ﷺ ما رآه بصره من صورة جبريل عليه السلام ، بل صدَّق قلبه ما رآه ببصره .

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ أتجادلونه وتنكرون عليه ما رآه من صورة جبريل .

ويشير القرآن إلى رؤية محمد لجبريل أيضاً ليلة عُرِجَ به إلى السماء :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (١٣ ـ ١٨) .

لقد رأى محمد جبريل مرة أخرى[1] على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها ، وكان ذلك ليلة الإسراء حين صعد إلى السماء ، فقد رأى جبريل عند ﴿ سِدْرَةِ المنْتَهى ﴾ والسدرة هي شجرة النبق ، والنبق شجر صحراوي ظليل ، أما تسمية السدرة بالمنتهى ، فقيل إنما سُمِّيت بذلك لأن إليها تنتهي الملائكة ولا تتعداها ، ولا يعلم ما وراءها إلاّ الله ، وقيل : ينتهي إليها ما يعرج من الأرض ، والله أعلم بالمراد .

﴿ عِنْدَها جَنَّةُ المأْوَى ﴾ أي عند هذه الشجرة : الجنة التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة .

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ يغشى : يُغطي ويستر ، والغاشي لها نور الله سبحانه ، وقيل : تغشاها الملائكة .

---

(١) اختلف المفسرون في الذي رآه محمد ﷺ هل هو جبريل ؟ أو هو رب العزّة جل وعلا ؟ فذهب ابن عباس وعكرمة إلى أن الرسول رأى ربه ليلة المعراج بعينيه ، وأنكرت ذلك عائشة وقالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله لأن الله تعالى يقول : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ وكانت تقول : إنما رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين : مرة في الأرض حين هبط من السماء وقد سدّ عِظَمُ خلقه ما بين السماء والأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح . هذا والآيات الكريمة في سياقها ودلالتها لا تشير إلى رؤية الرسول ﷺ لربه لأن الحديث فيها إنما جاء عن جبريل بدليل قوله تعالى : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وقوله : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ فإنه يقتضي مرة متقدمة ، فالضمائر كلها تدل على أن المراد به جبريل .

﴿ مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ أي ما مال بصر محمد ﷺ يميناً ولا شمالاً عما أُمِرَ برؤيته ، وما جاوزه إلى ما لم يُؤمر برؤيته .

﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرى ﴾ لقد رأى محمد ﷺ ليلة عُرِجَ به إلى السماء الآيات الكبرى ، والدلائل العظمى على قدرة الله ، فمما رآه : الجنة والنار ، ورأى جبريل في صورته الأصلية التي يكون عليها في السماوات حيث جعل الله له ستمائة جناح .

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن تفاهة عقول الكافرين الذين عبدوا الأصنام :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى . تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ (١٩ - ٢٢) .

فكفار قريش لم ينكروا وجود الله ، وأنه خالق كل شيء ، وإنما كانوا يشركون بالله ، ويعزون إلى أصنامهم : اللات[١] ، والعُزّى[٢] ، ومناة[٣] أنها تتصرف مع الله في أمور العباد ، فإذا تقرّب الإنسان من هذه الأصنام

(١) اللات : من الأصنام التي كانت لها شهرة واسعة بين العرب الشماليين ، وهم العرب الساكنون في الحجاز ، وكانت لها معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة من هذه الأنحاء ، وعند ظهور الإسلام كان معبدها الشهير في مدينة الطائف مركز قبيلة ثقيف يقصده الناس للتبرك به . وذكر ابن الكلبي أنها كانت صخرة مربعة بيضاء بنت ثقيف عليها بيتاً كانوا يسيرون إليه يضاهون به الكعبة .

(٢) العُزّى : من الأصنام التي وضعت بواد من نخلة الشامية يُقال له حراض ، وكانت قريش تتعبد للعزى وتزورها وتهدي إليها ، وتتقرب إليها بالذبائح ، وذكر ابن الكلبي أنها كانت من أعظم الأصنام عند قريش .

(٣) مناة : وهي من أقدم الأصنام في نظر الإخباريين وكان موضعها على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة ، وكانت مُعظمة عند الأوس والخزرج وعند جميع العرب ، وكان المتعبدون لها يقصدونها فيذبحون حولها ويهدون إليها . وكان سدنتها يجنون من سدانتهم لها أرباحاً حسنة .

شفعت لهم عند الله . وينقل القرآن على لسانهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهم إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى ﴾ . الزمر : ٣ .

وكان الكفار يعتبرون هذه الأصنام إناثاً ، وأنها بنات الله . ولقد استنكر الله دعواهم فقال : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ﴾ قال لهم ذلك حيث كانوا يحبون الذكور ويكرهون ولادة البنات لهم ، ثمَّ قال سبحانه : ﴿ تِلْكَ إذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ أي قسمتكم هذه قسمة جائرة عوجاء ، لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهون لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضون ، والله سبحانه يتنزه عن الولد ، سواء أكان ذكراً أم أنثى ، وتجدر الإشارة إلى أن كلمة ضيزى فيها غرابة اللفظ لتتناسب مع غرابة القسمة التي ادعوها .

ثم يبين القرآن أن هذه الأصنام من صُنع أيديهم ، ومن تسمياتهم ، لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً بل هي أحجار جامدة ، فكيف إذن يتوجهون إليها بالعبادة :

﴿ إنْ هِيَ إلاَّ أسْمَاءٌ سَمَّيْتُموهَا أنْتُم وَآباؤكم مَا أنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى ﴾ (٢٣) .

أي ما الأصنام التي تعبدونها إلاَّ أسماء محضة ليس فيها شيء من معنى الألوهية التي تدعونها ، لأنها لا تُبصر ، ولا تسمع ، ولا تعقل ، ولا تضر ولا تنفع ، فليست إلاَّ مُجَرّد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، قلّد فيها الأبناء الآباء ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان تثبت أنها آلهة ﴿ إن يَتَّبِعُون إلاَّ الظنَّ ﴾ أي لا يتبعون إلاّ الظن والوهم في عبادتهم للأصنام ، والظن تصوّر لا يستند إلى دليل ، وهو يؤدي بصاحبه إلى وهم باطل ، لا يفيد ما يفيده الحق ، وما يفيده العلم

اليقيني الذي عليه مدار الإيمان الصحيح ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ أي تميل إليه وتشتهيه أنفسهم من غير التفات إلى الحق ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ أي جاءهم البيان الواضح الظاهر من ربهم بأنها ليست آلهة .

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى إنكار وبطلان ما يتمناه الكفار من شفاعة الأصنام :

﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى . فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى . وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ (٢٤ ـ ٢٦) .

أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له ، وليس لهؤلاء الكفار ما يتمنونه من شفاعة تلك الأصنام أو غير ذلك مما تشتهيه أنفسهم ، فلله ـ وحده ـ التصرف في أمر الحياة الآخرة والحياة الأولى التي هي الحياة الدنيا .

ثم أعلمنا الله سبحانه أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتها على الله لا تشفع إلّا لمن أَذِنَ الله أن تشفع له ﴿ وَيَرْضَى ﴾ أي يراه سبحانه أهلاً للشفاعة .

فإذا كان الملائكة مع علو شأنهم لا يشفعون إلّا بعد إذنه سبحانه ومن يأذن الله له غير معروف من الخلق ، فكيف يسوّغ لنا نحن البشر أن نحكم على أناس بأنهم شفعاء لنا عند الله كما فعل بعض أتباع الأديان الأخرى إذ أطلقوا على أناس اشتهروا بالورع اسم قديسين ، واعتقدوا بأنهم يشفعون لهم ، وهذه التسمية هي من مسمياتهم ، لم يَرِد فيها حجة ولا برهان ، ولَا وَحْيٌ من الله بأنهم قديسون وأنهم شفعاء لهم عند الله . وكذلك ما يفعله بعض عامة المسلمين في بعض البلدان الإسلامية ، الذين أطلقوا على أشخاص اشتهروا بالتقوى والورع أسم أولياء ، وشادوا لهم الأضرحة بعد

مماتهم ، وتقربوا منهم بالنذور ، واعتقدوا بأن لهم القدرة على شفاء المرضى ، وتيسير الحاجات ، وأنهم شفعاء لهم عند الله ، فهذه الأمور والمعتقدات كلها مما ينكره القرآن الكريم .

فنحن لا ننفي الولاية التي أثبتها القرآن لبعض عباده الصالحين بقوله :

﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاء الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون . الَّذِين آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون . لَهُمُ البُشْرى في الحَياةِ الدُّنْيَا وَفي الآخِرة . . . . ﴾ يونس : ٦٢ ـ ٦٣ .

فالله سبحانه لم يُثْبِتْ للأولياء القدرة على التصرف في مقدُّرات الكون والأرزاق ، والشفاء للمرضى ، والشفاعة للناس في الآخرة .

كما أنه ليس من حقنا أن نطلق على من نراه مُقبلاً مِنَّا على عبادة الله اسم وليّ لأن الله سبحانه يقول في هذه السورة أيضاً : ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

وبعد تقرير هذه الحقيقة التي تصحح المفاهيم الخاطئة حول الشفاعة يعود القرآن للكلام عن مشركي العرب :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّون المَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى . وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٢٧ ـ ٢٨) .

فالذين لا يؤمنون بالآخرة أي بالبعث يوم القيامة ـ وهم مشركو العرب ـ ﴿ لَيُسَمُّونَ المَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثى ﴾ أي يعتقدون أن الملائكة إناث ، وأنهن بنات الله ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ فالمشركون حين يقولون هذا القول السخيف لم يقولوه نتيجة لعلم ، وإنما اعتماداً على الظن . وهم

﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلّاَ الظَّنَّ ﴾ فالعقيدة لا تُبنى على الظنون والأوهام ، إنما على العلم القائم على البرهان والحجة ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شيئاً ﴾ وإن الظن لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق .

وبعد هذا التحذير من الظنون والأوهام في مجال العقيدة يوجِّهُ القرآن الخطاب للنبي ﷺ ولكل مؤمن بالابتعاد عن الذين يُعرضون عن ذكر ربهم :

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِد إلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ العِلْمِ إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ (٢٩ ـ ٣٠) .

أي دع يا محمد من أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ، أو من أعرض عن القرآن ولم يأخذ بما فيه من الهدى ، واترك مجادلته فقد بلَّغت ما أُمرت به . وهو في إعراضه ﴿ لَمْ يُرِدْ إلاّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ اي لم يرغب إلاّ في الحياة الدنيا وملذاتها وشهواتها ، وليس له غاية أخرى وراءها .

هذا الخطاب موجه أيضاً إلى كل مسلم يواجه في الحياة أناساً يعرضون عن ذكر الله ، ويعرضون عن الإيمان به ، ويعرضون عن هدى القرآن ، ويجعلون وجهتهم وغايتهم الحياة الدنيا وملذاتها ، لا ينظرون إلى شيء وراءها ، ولا يؤمنون بالآخرة ، ولا يعملون لأجلها العمل الصالح ، وأقرب من تتمثَّل فيهم هذه الصفات هم أصحاب المذاهب المادية الذين ينكرون الأديان .

والمؤمن مطالب بالثبات على إيمانه ، والمحافظة على أداء شعائر الله ، وليس هناك ضرر أكبر من مصاحبة هؤلاء الماديين الذين يمكن أن تتسرب عقائدهم وسلوكهم لا شعورياً إلى قلبه من جراء مصاحبتهم .

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ العِلمِ ﴾ هذا وصف لكل من جحد الآخرة ، وحصر همه في هذه الدنيا ، فهؤلاء علمهم تافه ، لأن إدراك حقيقة الكون كفيل بالإيمان بالخالق وشكره وعبادته .

﴿ إنَّ رَبَّك هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ فهو سبحانه اعلم بمن حاد عن الحق الذي جاءهم به محمد ﷺ بواسطة الوحي ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ وهو سبحانه أعلم بمن اهتدى ، فاقتنع بالحق وعمل به ، وهو سبحانه يجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾
الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ
الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي
بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي
تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾
أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ

شرح المفردات

بالحُسنَى : بالمثوبة الحسنة ، وهي الجنة .

يَجْتَنِبونَ : يبتعدون ويهجرون .

كَبائِرَ الإِثْمِ : كبائر الذنوب كالشرك والقتل وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين .

الفَوَاحِشَ : جمع فاحشة ، وهي ما عَظُمَ قُبْحُه من الأفعال والأقوال .

اللَّمَمَ : صغائر الذنوب .

أَجِنَّة : جمع جنين ، وهو الطفل ما دام في بطن أمه .

فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ : فلا تمدحوا أنفسكم بحسن الأعمال .

هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى : هو سبحانه أعلم بمن أخلص له العمل واتقى ما يُغضبه .

تَوَلَّى : أعرض عن الإيمان والحق .

أَعْطَى قَلِيلاً : منح قليلاً من المال .

أَكْدَى : قطع العطاء بُخلاً .

أم لَمْ يُنَبَّأْ : ألم يُخبر .

صُحُفِ مُوسَى : هي التوراة .

الذي وَفَّى : أتمّ وأكمل ما أُمر به وبلّغ رسالات ربه .

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى : لا يؤاخذ أحد بذنب غيره .

وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا

شرح المفردات

مَا سَعَى : ما عمل .

وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى : اي يريه تعالى جزاءه يوم القيامة .

ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى : ثم يُجزي الإنسان على عمله الجزاء التام .

المُنْتَهَى : المصير في الآخرة .

نُطْفَةٍ : ماء الرجل وهو المنيّ .

تُمْنَى : تُصَبُّ في رحم المرأة .

النَّشْأَةَ الأُخْرَى : الإحياء بعد الممات يوم القيامة .

أَقْنَى : أعطاه ما يقتنى ويدّخر من المال . أو أرضى بما أعطى .

الشِّعْرَى : نجم معروف كان العرب يعبدونه في الجاهلية .

عَاداً الأُولَى : قوم من العرب البائدة وكان نبيهم هوداً عليه السلام .

ثَمُودَ : قوم من العرب البائدة وكان نبيهم صالحاً عليه السلام .

فَمَا أَبْقَى : اي اهلكهم الله فلم يُبقِ منهم احداً .

المُؤْتَفِكَةَ : قرى قوم لوط التي ائتكفت بهم أي انقلبت وانخسفت .

أَهْوَى : أسقطها إلى الأرض بعد رفعها .

فَغَشَّاهَا : غطّاها بأنواع من العذاب .

مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

شرح المفردات

آلاءِ رَبِّك : نعَم الله تعالى ومنها دلائل قدرته .

تتمارَى : تشك وترتاب .

أزِفَتِ : إقتربت .

الآزِفَةُ : من أسماء القيامة .

أنتُمْ سَامِدُونَ : لاهون غافلون .

تابع سُورَة النَّجْم

ثم يبيّن القرآن مجازاة الله للمسيئين والمحسنين في الآخرة :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الذين أَحْسَنُوا بالحُسْنَى ﴾ (٣١) .

هذه الآية تعليل لما قبلها ، فالله عالم بمن ضَلَّ وبمن اهتدى ، لأنه سبحانه مالك ما في السماوات وما في الأرض ، والمالك لا بد أن يحيط علماً بما يملك وما هو تحت سيطرته ، وهو سبحانه يعاقب الضالين جزاء ما عملوا من ضلال ، ويجزي الذين اهتدوا بالمثوبة الحسنة التي هي الجنَّة .

وهؤلاء الذين أحسنوا بيَّن الله صفاتهم بقوله :

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُم أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (٣٢) .

في هذه الآية وَعْدٌ من الله بالجنة للذين يَدَعُونَ ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ والإثم : هو الذنب ، والفواحش : جمع فاحشة ، وهي ما عَظُمَ قُبحه من الأقوال والأفعال ، وتطلق الفاحشة على الزنا خاصةً . وكبائر الإثم والفواحش قيل في تعريفها وتحديدها أقوال شتى ، نجمعها ونلخصها فيما يلي :

الكبائر هي ما نصَّ الله سبحانه على تحريمه ، أو ما وجب فيه عقوبة كالسرقة والقتل والزنا وغير ذلك ، أو ما ورد فيه توعّد بالعذاب بالنار يوم القيامة ، أو الغضب من الله ، أو ما وجب فيه لعنة ، أو ورد فيه وعيدٌ

شديد ، أو وُصِفَ فاعله بالفسق .

وقد عدد النبي ﷺ بعض هذه الكبائر بقوله :

« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ، قلنا بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وَقَوْل الزُّور ، وشهادة الزُّور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت »[١] .

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ :

« اجتنبوا السبع الموبقات[٢] ، قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسِحْر ، وَقَتْل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم والتولي[٣] يوم الزحف[٤] ، وقذف[٥] المحصنات المؤمنات الغافلات[٦] .

ولولا خوف التطويل لذكرنا الكثير من هذه الكبائر[٧] .

أما معنى : « اللَّمَم » فهو الصغائر من الذنوب ، وأصل اللَّمم في اللغة ما قل أو صغُر ، ويأتي اللمم بمعنى مقاربة المعصية دون ارتكاب لها .

فالمراد باللَّمم أن يلمّ بالذنب الصغير مرة ثم يتوب فلا يعود إليه ، وقيل : إنه صغار الذنوب كالنظرة والقُبلة ، وما كان دون الزنا ، ويؤيد هذا

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) الموبقات : المهلكات .

(٣) التولي : الإعراض والفرار .

(٤) يوم الزحف : أي زحف جيوش الأعداء .

(٥) قذف المحصنات : إتهام العفيفات بالزنا .

(٦) رواه البخاري ومسلم .

(٧) للمؤلف كتاب في هذا الموضوع اسمه (الخطايا في نظر الإسلام) .

حديث رسول الله : « إن الله كتب على ابن آدم حظّه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فَزِنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تتمنّى وتشتهي والفَرْج يُصَدِّق ذلك أو يُكَذِّبه »[1] .

ويرجح الطبري معنى اللمم بأنه : ما دون الكبائر ، ودون الفواحش الموجبة للحدود[2] في الدنيا ، والعذاب في الآخرة فإن ذلك معفو عنه .

ثم يقول سبحانه بعد أن ذكر كبائر الإثم : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ فهذا النص القرآني بما له من أبعاد يفتح على العاصين أبواب المغفرة إذا ما رجعوا إلى الله ، وتابوا من ذنوبهم ، ولو كانت من الكبائر ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ والَّذِينَ إِذَا فَعَلوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِم . . . . ﴾ ١٣٥ ، ١٣٦ فالله ضمن للمذنبين المغفرة في حال عدم إصرارهم على الذنب واستغفارهم لما فعلوه من الإثم .

ولنعد إلى بقية الآية السابقة فيقول سبحانه : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ أي إن ربكم أعلم بكم في وقت إنشائكم من الأرض ، وإنشاء الإنسان من الأرض قد يُراد به أن أباهم آدم خُلِقَ من طين الأرض وهم من نسله ، وقد يُراد به أن الذي يتكوّن منه الإنسان ناشىء من التغذية التي مصدرها الأرض . ﴿ وَإِذْ أَنْتُم أَجِنَّةٌ في بُطُون أُمَّهاتِكُم ﴾ أي أنه سبحانه يعلم بكم حال كونكم أجنّة[3] قبل الولادة ، وفي هذا دلالة على إحاطة علم

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) الحدود : هي الذنوب التي تجب فيها عقوبة حددها الشرع كالقتل والسرقة والزنا وغير ذلك .
(٣) أجنّة : جمع جنين ، وهو الولد في رحم أمه .

الله بالأشياء ، فإن رَحم الأم في غاية الظلمة ، ومن عَلِمَ بحال الجنين فيه لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد .

ويختم الله الآية بقوله : ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ أي لا تمدحوها ، ولا تبرّئوها مِنَ الآثام ولا تُثنوا عليها ، فإن عدم تزكية النفس يبعدكم عن الرياء ، وهو سبحانه أعلم بمن خافه ، واتقى ما يغضبه . وقد يراد بقوله تعالى : ﴿ فلا تُزَكّوا أَنْفُسَكُم ﴾ أي لا يثني بعضكم على بعض ، وقد عبّر بأنفسكم عن الغير لأن المؤمنين جماعة واحدة متشابكة وأجزاء في جسم واحد ، فكأن ما ينسبه الواحد منهم إلى غيره ينسبه إلى نفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُم ﴾ واللمز هو الطعن ، والمراد الطعن بالغير لأن الإنسان لا يطعن بنفسه .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان العدالة الإلٓهية يوم الجزاء في الآخرة :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى . أَعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى . أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بما في صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذي وَفَّى . أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى . وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ (٣٣ - ٤٢) .

﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ الهمزة للاستفهام ، أي هل تأملت وعلمت ﴿ الذي تَوَلَّى ﴾ أي الذي أعرض عن الإيمان واتباع الحق . ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلاً ﴾ أي أعطى قليلاً من المال ﴿ وَأَكْدَى ﴾ وقطع العطاء وأمسك .

ولكن من الذي أعرض عن الإيمان ، وأعطى القليل من المال ثم أمسك عن العطاء ؟ قيل : إنه الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتّبع رسول الله على دينه فعيّره أحد المشركين وقال له : لِمَ تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت

أنهم في النار ؟ قال : إني خشيت عذاب الله ، فضمن له هذا الرجل إن هو أعطاه شيئاً من ماله ، ورجع إلى دينه السابق أن يتحمل عنه عذاب الله في الآخرة ، فأعطى الوليد الذي عاتبه بعض ما كان تعهد به ، ثم بخل ومنع العطاء عنه .

فالذي فهمه الوليد بن المغيرة من أن الغير يتحمل عنه مسؤولية عمله في الآخرة أجاب عنه القرآن بأمرين : أولهما أنه لا علم له بالغيب حتى يعرف مصيره السيء يوم القيامة . وثانيهما هو ما ورد في صحف الأنبياء السابقين من أن كل إنسان يتحمل إثم عمله بنفسه لا بواسطة غيره قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا في صُحُفِ مُوسى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ أي ألَمْ يُخْبر بما اشتملت عليه الكتب المنزلة من الله ، وهي صحف موسى « أي التوراة » وصحف إبراهيم ذلك النبي الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه وبلّغ رسالة ربه ، هذه الصحف اشتملت على هذه القاعدة الجليلة التي جاء القرآن مصدّقاً لها والتي رددها خمس مرات في مواضع متفرقة منه لتأكيدها في النفوس :

﴿ ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ .

الاَّ : أن المخففة من الثقيلة مدغمة بـ لا النافية ، أي أن لا . تَزِرُ : تحمل . وَازِرَة : نفس آثمة مذنبة . وِزْرَ أخرى : إثم نفس أخرى ، والوزر هو الذنب والإثم . والمعنى : لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، ولا تحمل نفس آثمة وزر نفس أخرى ، ولكن كل إنسان مجزيٌّ بعمله .

هذه القاعدة الجليلة العادلة بالرغم من سريان مفهومها في الحساب على الأعمال يوم القيامة ، هي في الوقت نفسه تعليم للبشر للأخذ بمضمونها في حياتهم الدنيا وسائر تصرفاتهم فيها ، فلو عمل الناس بمضمونها لتجنّبوا

كثيراً من الظلم والجرائم التي تقع في بقاع الأرض ، ويكون ضحيتها الأبرياء . فجرائم الأخذ بالثأر مثلاً خروج على هذه القاعدة الجليلة .

وهذه القاعدة تنقض أيضاً معتقد بعض الأديان بالخطيئة الأزلية التي تسلسلت إليهم عن أبيهم آدم .

ويتابع القرآن قوله : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَان إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ هذه الآية وثيقة الصلة بالتي قبلها ، فكما أن الإنسان في جانب الأوزار لا يسجل عليه ذنب غيره ، كذلك في أعمال البر لا يُسَجَّل عليه إلاّ ما جنته يداه . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الإمام الشافعي ومن اتبعه أن قراءة القرآن لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى لأنها ليست من عملهم ولا من كسبهم ، ولهذا فإن رسول الله لم يحث أمته على تلك القراءة ، ولا أرشدهم إليها بنص ولا إيماء ، ولم يُنقل ذلك عن أحد من الصحابة . أما الدعاء والصدقة فمجمع على وصول ثوابها للميت إذا كان مؤمناً .

ويتابع القرآن قوله : ﴿ وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ أي أن عمله يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة ﴿ ثم يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى ﴾ أي ثم يجزي الله الإنسان على عمله الجزاء التام . ﴿ وأنَّ إلى رَبِّكَ المنْتَهى ﴾ أي المرجع والمصير إلى الله الذي سيجازي الناس على أعمالهم .

وبعد عرض هذه الحقائق التي تبين مسؤولية الإنسان في عمله ، ينتقل القرآن إلى بيان عظمة القدرة الإلَهية وضآلة الإنسان حيالها :

﴿ وأنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . وَأَنَّه خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى . وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى . وَأَنَّه هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى . وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ (٤٣ ـ ٤٩) .

فالله سبحانه هو الذي خلق الفرح الذي يتسبب عنه الضحك ، وخلق

الحزن الذي يتسبب عنه البكاء ، فمهما بلغ الإنسان من مراتب المُلك والعظمة والغنى فإنه سيقف يوماً هذا الموقف الذي تنهمر فيه دموعه لمؤثرات خارجة عن إرادته كموت أحد أفراد أسرته ، وهذا يدل على ضعف الإنسان ، وأنه رهنٌ من بيده الملك ، لا حول وله ولا قوة .

﴿ وأنه أمات وَأحْيَا ﴾ هذه الآية تبين عظمة القدرة الإلّهية المسيطرة على هذا الكون ، ففي كل لحظة تتكرر هذه الصورة ملايين المرات في عالم الأحياء على هذه الأرض ، مخلوقات تُبصر النور ، وآخرون يودعون هذه الحياة قسراً عنهم .

ثم يبين الله أنه خلق الزوجين : الذكر والأنثى ﴿ من نطفة إذا تُمنى ﴾ والنطفة هي منيّ الرجل . وتُمنى : أي تُصب في رحم المرأة . وسنزيد ذلك إيضاحاً في التفسير العلمي في آخر السورة .

﴿ وأن عليه النَّشْأَةَ الأُخْرَى ﴾ أي وأنه سبحانه تكفل بإعادة الأرواح إلى الأجساد عند البعثِ يوم القيامة ليُجازي سبحانه كلاً من المحسن والمسيء حسب عمله . ﴿ وَأَنَّه هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ فهو سبحانه أغنى العباد بفضله ، وهو سبحانه ﴿ أقنى ﴾ أي أعطاهم ما فيه من المال الذي يُدَّخر ويُقتنى ، وقيل : أقنى بمعنى أرضى ، فهو سبحانه أعطى العباد وأرضاهم ولم يدعهم محتاجين لأحد .

﴿ وَأَنَّه هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ والشعرى هي ألمع ما يرى من نجوم السماء ، وقد اختصها الله بالذكر لأن بعض العرب كانوا يعبدونها ، وكان قدماء المصريين يعبدونها أيضاً ، فأعلم الله الناس أن الشعرى ليست رباً ، وأن لها رباً هو الله سبحانه .

ثم يبين الله سبحانه ما فعل بالأمم السابقة جزاء كفرهم :

﴿ وأنَّه أَهْلَكَ عاداً الأُولى . وثَمُودَ فَمَا أَبْقَى . وَقَوْمَ نُوح مِنْ قَبْلُ إنَّهُم كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى . والمؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارَى ﴾ (٥٠ ـ ٥٥) .

فالله أهلك قوم عاد وثمود . وعاد وثمود من قبائل العرب البائدة ، ووصفوا بذلك لأنهم بادوا أي هلكوا ، ولم يبقَ على وجه الأرض أحد من نسلهم . وقد بعث الله في قوم عاد نبياً منهم اسمه «هود» عليه السلام كما بعث الله في قوم ثمود نبياً منهم اسمه « صالح » عليه السلام . وَوُصِفَت عاد بالأُولى لأنهم كانوا قبل ثمود ، وقيل لأنهم أوّل أُمة أُهلكت بعد قوم نوح ، وقيل إنهما طبقتان : عاد الأولى ، وعاد الثانية . ومعنى ﴿ فما أَبْقَى ﴾ أي أنه سبحانه دمرهم وأهلكهم فلم يُبقِ من عاد وثمود أحداً .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي وأهلك الله أمة نوح من قبل عاد وثمود ﴿ إنَّهم كانوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ أي أنهم أكثر ظلماً ، وأشد طغياناً من الفريقين السابقين .

﴿ والمؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ الائتفاك : الانقلاب ، والمؤتفكة مدائن قوم لوط ، وسميت بالمؤتفكة لأنها انقلبت بهم ، وصار عاليها سافلها . وأهوى : أي جعلها سبحانه تهوي على أهلها فتدمر ويهلك أهلها ﴿ فَغَشَّاها مَا غَشَّى ﴾ أي أحاط بها من العذاب ما أحاط ، أو غشاها ما غشى من الحجارة التي أمطرها الله عليهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمِ حِجَارَةً مِن سجّيل ﴾ . الحجر : ٧٤ .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ الآلاء : النِّعَم . وتتمارى : تتشكك . أي فبأي نعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته في إهلاك الأمم الظالمة تتشكك أيها الإنسان وترتاب ، وتسمية الأمور التي ذُكرت من إهلاك الظالمين بأنها

من نعَمِ الله حيث أنها نُصرةٌ للأنبياء والمؤمنين ، وتطهير للأرض من شر هؤلاء الظالمين .

وأخيراً يختم الله هذه السورة منذراً الكافرين ، داعياً إياهم إلى الخضوع له وعبادته وحده :

﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى . أَزِفَتِ الآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ . أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ . وَأَنْتُم سَامِدُونَ . فَاسْجُدوا لِلَّهِ واعْبُدُوا ﴾ (٥٦ ـ ٦٦) .

قيل المقصود بالنذير هو محمد ﷺ ، وقيل : إنه القرآن فهو نذير من جنس الإنذارات المتقدمة التي سمعتم عاقبتها ، وفي ذلك تخويف لأمة محمد ﷺ وكافة الأمم من أن يحل بهم من العذاب والهلاك مثل ما حلَّ بالأمم السابقة إن ساروا على نهجهم .

﴿ أَزِفَتِ الآزِفَة ﴾ أزفت : قربت ، والآزفة : المراد بها القيامة لأنها قريبة الحدوث بالنسبة لما مضى من الزمان ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَة ﴾ أي ليس لها غير الله من يكشف عن وقت وقوعها ، فعلمها مما اختص به الله سبحانه وحده وقيل : لا يقدر على كشفها إذا غشيت الخلق بشدائدها وأهوالها أحد غير الله .

﴿ أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُون ﴾ المراد بالحديث هنا : القرآن ، أي أفمن هذا القرآن تعجبون فتنكرونه ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ أي تضحكون استهزاء وسخرية منه ولا تبكون كما يفعل المؤمنون الموقنون بلقاء ربهم ﴿ وَأَنْتُم سَامِدُونَ ﴾ لاهون معرضون عنه ﴿ فاسْجُدوا لِلَّهِ وَاعْبُدوا ﴾ أي فاخضعوا لله وأفردوه بالعبادة ، فهو الذي أنزل القرآن هدى للناس ، ودعوا ما أنتم فيه من عبادة للأوثان والأصنام والإشراك بالله لعل الله يرحمكم .

التفسير العلمي

جنس الجنين مصدره الرجل :

يقول تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ .

فالله سبحانه يقول إنه خلق الذكر والأنثى من المنيّ الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة .

والملفت للنظر أن القرآن نص على أن جنس الذكورة ، أو جنس الأنوثة مصدره منيّ الرجل ، وهذا من الحقائق التي توصل إليها العلم حديثاً ، وأعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرناً .

فالسائل المنوي الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة يحتوي على ملايين الحييات (أي الحيوانات) المنوية ، وهذه الحييات تحمل صبيغات أنثوية وذكرية معاً . وأحد هذه الحييات المنوية من الملايين هو الذي يخصب بويضة الأنثى .

فإذا كان الحيوان المنوي الذي يخصب بويضة الأنثى للإنجاب يحمل صبغيات أنثوية كان الجنين أُنثى ، وإذا كان الحيوان المنوي يحمل صبغيات ذكرية كان الجنين ذكراً .

وهكذا نرى القرآن سبق العلم إلى إقرار حقائق عن تكوين الإنسان لم تُعرف إلاّ منذ أمد قريب . وذلك بعد الاستعانة بالمجهر (الميكروسكوب) والتحاليل الطبية . وهذا مما يشهد بأن القرآن وحي إلّهي وأن محمداً رسول الله حقاً .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ

شَرح المفردَات

اقْتَرَبَت السَّاعَةُ : قَرُبت القيامة .

انشَقَّ القَمَرُ : انفلق فلقتين معجزة لمحمد ﷺ .

آيَةً : معجزة .

يُعْرِضُوا : يكذِّبوا .

وكُلُّ أمْرٍ مُسْتَقِرّ : أي يستقر بكل عامل عمله ، فالخير مستقر بأهله في الجنة ، والشر مستقر بأهله في النار .

الأَنْبَاء : أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا بسبب كُفرهم .

مُزْدَجَر : ما يزجرهم ويردعهم عمَّا هُم عليه من التكذيب والكفر .

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ : الحكمة هنا القرآن ، وقد بلغت الغاية من السُّموّ وعدم النقص والخلل .

فما تُغْنِي النُّذُر : فما تنفع الإنذارات لقوم لا يؤمنون بها .

فَتَوَلَّ عَنْهُم : فأعرِض عنهم .

يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ : يوم ينفخ الملك إسرافيل في البوق النفخة الثانية ليُبعث الناس .

شَيءٍ نُكُرٍ : منكر فظيع (هول يوم القيامة) .

خُشَّعاً أبصارُهُم : ذليلة أبصارهم لا يستطيعون رفعها من شدة الهول .

يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى
الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ
فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا
فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾
تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ

شَرح المفردَات

الأجْداث : القبور .

مُهْطِعِين : مسرعين ، مادين أعناقهم ناظرين إليه .

يَوْمٌ عَسِر : يوم صعب شديد لعظم أهواله .

قَبْلَهُمْ : أي قبل مشركي أهل مكة .

ازْدُجِرَ : زُجِرَ عن تبليغ رسالة ربه بالشتم والتخويف .

مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر : مقهور فانتقم لي منهم .

بِمَاءٍ مُنْهَمِر : ماء منصب انصباباً شديداً .

فَجَّرْنَا الأَرْضَ عيوناً : جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة .

فالْتقى الماءُ : أي التقى ماء الأرض والماء النازل من السماء .

أَمْرٍ قَدْ قُدر : أمر قَدَّرَه الله وقضاه وهو هلاك قوم نوح .

دُسُر : جمع دِسار ، وهو الخيط من ليف تُشَدُّ به ألواح السفينة . وقيل : المسمار .

تجري بأعْيُننا : تجري بعناية الله وحفظه ورعايته .

كُفِر : كذِّب وجحد ما جاء به نوح من الهدى .

تَرَكْنَاهَا آيةً : تركنا حادثة الطوفان ، أو آثار السفينة عظة وعبرة .

مُدَّكِرٍ : متذكر يعتبر بذلك .

﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ
أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا
وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا
بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا
مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ

شَرح المفردَات

نُذُر : جمع نذير بمعنى الإنذار .

يَسَّرنَا القرآن للذِّكْرِ : سهَّله الله للحفظ ، وهيأه للتذكر والاتعاظ .

ريحاً صرصراً : ريحاً شديدة البرودة شديدة الصوت .

يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٌ : يوم مشؤوم دائم النحس .

تَنْزِعُ النَّاسَ : تقلعهم من مواضعهم .

أعْجَازُ نَخْلٍ : أصول نخل بلا فروع .

مُنْقَعِر : مُنقلع من مغرسه .

سُعُر : عناء وعذاب .

أَأُلقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا : أُخصَّص بإنزال الوحي عليه من دوننا .

أشِرٌ : بَطِر متكبِّر .

فِتْنَةً لَهُم : إمتحاناً وابتلاء لهم .

فارْتَقِبْهُم وَاصْطَبِر : إنتظر ما يصنعون واصبر على أذاهم .

قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

شَرح المفردَات

أنَّ الماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُم : إن الماء مقسوم بينهم وبين الناقة يوماً لهم ، ويوماً لها .

كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ : كل شرب يحضره صاحبه في يومه ويستحقه .

فَتَعَاطَى فَعَقَرَ : فتناول الناقة بيده ونحرها .

كَهَشِيم : يابس النبات الذي يتكسّر ويتحطم .

المُحْتَظِر : هو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر .

سُورَةُ القَمَرِ

ايضـــاح و دروس

في هذه السورة استعراض لبعض أصحاب الرسالات الإلٓهية السابقة ، الذين أتوا قومهم بالهدى والصلاح ، لكن قومهم تنكّروا لهم وقاوموهم واضطهدوهم ، فأرسل الله على هؤلاء الظالمين العذاب وأهلكهم ، ونجّى الله رسله ومن آمن من قومهم من العذاب والهلاك .

فالهدف من عرض أخبار الأمم السالفة ـ وما حل بهم من هلاك جزاء كفرهم ـ هو تثبيت قلب الرسول محمد ﷺ ومن آمن معه ، وإعلامهم بأن شأن الهداة والمصلحين وأهل الإيمان أن يقاومهم قومهم ويضطهدوهم ، ولكن الغلبة والنصر سيكونان لا محالة لهم في نهاية الأمر ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هذا العرض يهدف إلى إنذار الكافرين بسوء المصير .

وهذه السورة قَصُرَت آياتها ، واتّسقت فواصلها ، واطّردت في أواخر الآيات على نسق معين ، كما نرى في أسلوبها ذلك الجمال الصوتي مع سُهولة اللفظ ، وعُذوبة السبك مما يعطي تأثيراً في النفس .

استهلّ الله هذه السورة بتخويف الكفار بقرب قيام القيامة ، مع ذِكْرِ معجزة من المعجزات التي أيّد الله بها نبيه ﷺ :

﴿ اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشَقَّ القَمَرُ . وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أمرٍ مُسْتَقِرٌّ . وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنَ الأَنْبَاءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ (١ ـ ٥) .

فمعنى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ أي قَرُبت القيامة ، وسُميت القيامة بالساعة

لأن وقتها هو ساعة الفصل بين الخلائق . وقد يقول القائل : لقد مضى على نزول الآية زمان طويل فكيف يكون زمان الساعة قد اقترب ، والجواب : أنه اقترب بالنسبة لما مضى من عمر الدنيا ، لأن القرب مسألة نسبية فقد تكون لحظات أو ساعات أو ألوف السنين ، والمؤمن يجب أن يتوقع القيامة في أية لحظة ، وأن يعمل لآخرته على هذا الأساس .

﴿ وَانْشَقَّ القَمَرُ ﴾ اختلف المفسرون في المراد بانشقاق القمر ، فقيل : المراد إنه انشطر إلى فلقتين وذلك على عهد رسول الله ، وكان ذلك معجزة له ، فقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آية (أي معجزة) فأراهم انشقاق القمر[1] . وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعدُ وهو منتظر ، ويكون المعنى : اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر ، وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من قمر وغيره . وقالوا لو انشق القمر على عهد النبي لرآه جميع الناس ولم تقتصر رؤيته على البعض لأنه معجزة والناس في رؤية المعجزات سواء .

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ الآية : المعجزة ، أي وإن يروا معجزة تدل على صدق النبي ﷺ يُعرضوا عن التأمل فيها والاتعاظ بها ﴿ وَيَقُولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ ومستمرّ بمعنى ذاهب أي باطل لا دوام له .

﴿ وَكَذَّبُوا واتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ ﴾ هذه علامة الكافرين ، فهم يكذبون أنبياءهم ، وهم بذلك يتبعون أهواء نفوسهم ورغباتهم وما زيّنه الشيطان لهم .

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أي أن كل أمر من أمور هذا العالم منتهٍ إلى غاية ، فالخير يستقر بأهل الخير ، والشرّ يستقر بأهل الشر .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنَ الأَنْبَاءِ ﴾ أي جاء هؤلاء القوم من أخبار الأمم السالفة

---

(١) روى الإمام مسلم أحاديث بهذا المعنى أيضاً .

الذين حلّ بهم العذاب والهلاك بسبب كفرهم ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي ما يزجرهم ويردعهم عن الكفر .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ فالحكمة هنا مراد بها القرآن الكريم ، الذي احتوى على حِكَم وعِظات بالغة النهاية في ردع الشر ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ فما تنفع الإنذارات من انصرف عنها ولم يتعظ بها .

ثم يبين القرآن بعد ذلك سوء مصير الكافرين يوم القيامة :

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ . خُشَّعاً أَبْصَارُهُم يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ (٦ - ٨) .

فالله يخاطب نبيه بقوله : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم ، والمراد ترك جدالهم والمناظرة معهم . ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ والداعي هو مَلَكٌ من الملائكة ، اسمه إسرافيل ودعاؤه يكون بالنفخ في البوق يوم القيامة النفخة الثانية ، فيخرج الأموات من قبورهم أحياء للحساب . والداعي يدعوهم ﴿ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ أي إلى شيء منكر تنكره النفوس لما ترى فيه من الأهوال والبلاء وهو كرب يوم القيامة وشدته ، وهم في هذا الكرب ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أي أبصارهم خاضعة ذليلة ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُم جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ والأجداث : هي القبور ، أي يخرجون من القبور وكأنهم الجراد المنتشر ، والجراد هو الحشرة المعروفة التي تأتي على الأخضر واليابس من الزرع ، ووجه الشبه هنا من حيث كثافة الجراد في انطلاقه ، إذ يصل الأمر به إلى حد أن يحجب رؤية الشمس ، وهذا هو شأن ملايين الملايين من البشر عندما يُبعثون أحياء يوم القيامة من قبورهم وهم ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ أي مسرعين مادين أعناقهم ناظرين إلى الداعي ﴿ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾

أي يوم صعب شديد لما يشاهدون فيه من الأهوال وسوء المصير .

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى ذِكْرِ أحوال بعض الأمم السالفة التي حلّ بها العذاب والهلاك في الدنيا بسبب كفرها ، ورفضها دعوة أنبيائها ، مذكِّراً بذلك كفار قريش ليعتبروا ويرتدعوا ، وقد استهلت الآيات ببيان ما حلّ بقوم نوح عليه السلام :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا : مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (٩ ـ ١٧) .

هذه الآيات تشير إشارات موجزة لقصة نوح عليه السلام ، وهي على إيجازها تتضمن كل عناصر القصة كما فصّلها القرآن في السور الآتية : الأعراف ، وهود ، ونوح .

فالله يخبرنا بأنه كما كذّب كفار مكة نبيهم محمداً ﷺ فقد كذّب قبلهم قوم نوح الذين كذّبوا نبيهم نوحاً ورموه بالجنون ﴿ وازْدُجِر ﴾ أي حالوا بينه وبين تبليغ رسالة ربه بأنواع من الأذى والتخويف . عندئذٍ دعا نوح ربه : أني مغلوب يا رب من قومي وضعيف عن مقاومتهم فانتقم لي منهم .

إستجاب الله دعاء نوح وأهلك قومه بالطوفان بعد أن نجاه ومن آمن معه بالسفينة التي أمره بصنعها والركوب فيها قبل حصول الطوفان .

ويصوّر القرآن مشهد هذا الطوفان بتلك الصورة الحية المعبرة حيث بدأت تباشيره بالمطر الشديد ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ فكأن للسماء أبواباً تفتحت ومنها تنصب المياه كالسيول على الأرض ، وإضافة إلى ذلك

﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً ﴾ أي وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجّر بالماء ، ﴿ فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي أن ماء الأرض وماء السماء التقيا ليحصل من جراء ذلك الطوفان الذي قدّره الله وقضاه لهلاك الكافرين .

كما قد هيأ الله سبيل النجاة لنوح ومن آمن معه على السفينة التي أمره بصنعها قبل الطوفان ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ أي وحملنا نوحاً على سفينة من خشب تَشدُّ ألواحها مسامير أو خيوط من ليف . ووسط هذا الطوفان تسير السفينة بمن فيها بأمر الله وحفظه ورعايته ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي برعايتنا وحفظنا ، وهكذا كان الطوفان عقاباً وجزاء للذين كفروا : ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ أي جعلنا حادثة إغراق قوم نوح ونجاة المؤمنين عبرة وعظة لمن يأتي بعدهم من الأمم . وقد يُراد بالآية السفينة نفسها فقد رُوي عن قتادة[1] أن الله أبقى سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة . ثم يقول سبحانه : ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متعظ ومعتبر ؟

ويعقب الله على هذا الحدث بآيتين ردَّدهما في آخر كل مشهد من مشاهد العذاب الذي حل بالأمم السالفة ، الآية الأولى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي فانظروا أيها الناس كيف كان عذابي وعقابي لهم على كفرهم ، وإنذاري لمن سلك سبيلهم بحلول مثل ذلك العقاب بهم . والآية الثانية : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أي لقد سهلنا القرآن للحفظ وهيأناه للتذكر والاتعاظ فهل من متعظ بمواعظه ؟

وبعد قصة نوح شرع القرآن في ذكر قصة قوم عاد ، وما حلّ بهم جزاء كفرهم . وعاد قبيلة من قبائل العرب البائدة ، سُمّيت باسم جدها الأعلى

---

(١) قتادة : من مشاهير المفسرين من التابعين وغالب أقواله في التفسير تلقاها من الصحابة .

« عاد » الذي يرجع نسبه إلى نوح عليه السلام .

وعاد كانت مساكنهم « بالأحقاف » أي الرمال وموقعها بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر . وكانت هذه القبيلة تعبد الأصنام فأرسل الله إليهم نبيه هوداً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، وأنذرهم من عذاب الله إن استمروا على كفرهم ، فلم ينصتوا إلى إنذاره ، بل رموه بالسفه والطيش والكذب ، فأهلكهم الله بريح شديدة البرودة وشديدة الصوت استمرت أياماً ، ونجَّى الله هوداً ومن آمن معه .

وقد ورد ذكر قبيلة عاد في كثير من سور القرآن بأساليب مختلفة ، بعضها يسهب في الكلام عنها ، والبعض الآخر يشير إليها بإيجاز كما في هذه السورة حيث يقول تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُستَمِرٌ . تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (١٨ ـ ٢٢) .

كذبت عاد نبيهم هوداً ، فعلى أي حال كان عذاب الله وإنذاره للمخالفين أوامره ؟! لقد كان من غير شك على كيفية هائلة من العذاب . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً صَرْصَراً ﴾ أي سَلَّط الله عليهم ريحاً شديدة البرودة شديدة الصوت ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٌ ﴾ أي في يوم شؤم عليهم مستمر حتى أهلكهم جميعاً ، ويمكن أن نفهم من قوله تعالى : ﴿ مُسْتَمِرٌ ﴾ أن الريح استمرت سبع ليال وثمانية نهارات كما جاء في سورة الحاقة ، أو أن عذابهم كان غير منقطع لاتصال عذابهم الدنيوي بالأخروي . وهذه الريح كانت ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ أي تقلع الناس من أماكنهم ، وترميهم صرعى على الأرض كأنهم أصول نخلٍ قد انقلعت من مغارسها في الأرض .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى الكلام عن قبيلة ثمود وما حلّ بها جزاء كفرها . وثمود من قبائل العرب البائدة سميت باسم جدها الأعلى ثمود الذي يرجع نسبه إلى نوح عليه السلام ، وكانت مساكن ثمود في الحجر في وادي القرى من الحجاز . وكانت هذه القبيلة تعبد الأصنام ، فأرسل الله إليهم نبيه صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى عبادته وحده .

لم تؤمن قبيلة ثمود بما دعاها إليه نبيها من عبادة الله ، بل راحوا يتهمونه بالهذيان والكذب ، وطلبوا منه أن يأتيهم بمعجزة تدل على أنه رسول الله حقًّا ، فأيَّده الله بالناقة التي خلقها سبحانه على غير المألوف (قيل إنها خرجت من صخرة) وأمرهم سبحانه ألاّ يمسوها بسوء ، وجعل الله لهم شُرباً في يوم معلوم ، وجعل لها شرباً في يوم غيره ، وأوعدهم بالعذاب إن اعتدوا عليها بسوء .

مكثت الناقة بينهم زمناً تأكل من نبات الأرض تَرِدُ الماء يوماً ، وتبتعد عنه يوماً آخر ، وقد استمالت هذه الناقة بعض الكافرين ، إذ رأوا فيها معجزة تدل على صدق نبوة صالح فآمنوا بالله واتبعوه ، فأفزع هذا الأمر طبقة الأشراف ، وخافوا من ازدياد عدد المؤمنين ، فأرسلوا أحدهم لقتل هذه الناقة ، وقد نحرها بالرغم من تحذير نبيهم من خطورة هذا العمل ، فأرسل الله على ثمود صيحة واحدة أهلكتهم بعد أن نجّى الله نبيه صالحاً ومن معه من المؤمنين من الهلاك .

هذا ملخص ما جاء في القرآن الكريم عن قصة ثمود التي ورد ذكرها في كثير من السور ، أما في هذه السورة فيشير إليها القرآن إشارات موجزة كما نراه في الآيات التالية :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ . فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ

وَسُعُرٍ . أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ . إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ . وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ . فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن للذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (٢٣ ـ ٣٢) .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ أي كذبت ثمود بإنذارات نبيهم صالح بأن عذاباً سيحل بهم إن استمروا على كفرهم .

﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ ﴾ أي قالوا : أنتبع واحداً من عامتنا وليس من أشرافنا ، وهو واحد لا أتباع له ولا عصبية تشد أزره .

﴿ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ والسعر : الجنون ، وقيل : البُعد عن الحق . أي أننا إذا اتبعناه كنا غير مهتدين ، أو كنا في حالة جنون وبُعْدٍ عن الحق .

﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ الذكر : هو الوحي ، والأشِر : المتكبر والبطر . والمعنى : كيف خُصَّ صالح من بيننا بالوحي الإلّهي وفينا من هو أحق بذلك ، إنه ، بادعائه النبوة ، كذاب متكبر بَطِر يريد العلو علينا .

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ أي سيعلمون غداً يوم ينزل بهم العذاب من هو الكذاب المتكبر البطر .

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾ إننا سنرسل لهم الناقة معجزة كما طلبوا ، وستكون فتنة لهم : أي امتحاناً واختباراً لهم ، والمعجزة في إرسال الناقة أن الله أخرجها من صخرة أمام أعينهم .

﴿ فَارْتَقِبْهُمْ واصْطَبِرْ ﴾ فانتظر يا صالح وتبصّر ما هم فاعلون ، واصبر على ما يصيبك من أذاهم حتى يأتيهم أمر الله بعذابهم .

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ وأخبرهم يا صالح أن الماء الذي يشربونه مقسوم بينهم وبين الناقة لها يوم ، ولهم يوم .

﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ كل نصيب من الماء يحضره صاحبه في يومه المخصص له للشرب ، فتحضر الناقة يوماً وتنال شربها ، ويحضر القوم يوماً آخر وينالون شربهم .

﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُم فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ أي نادى قوم ثمود صاحبهم يحضّونه على عقر الناقة وهو « قدار بن سالف » وكان أجرأهم على المعصية فتناول الناقة بسيفه ونحرها .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ فعلى أية حال كان عذابي وإنذاري للمخالفين أمري ؟ لقد كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بهما الوصف.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ والصيحة التي أرسلها الله عليهم قيل إنها صيحة جبريل ، وقيل إنها الصاعقة كما جاء في القرآن : ﴿ فَأَخَذَتْهُم الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرون ﴾ الذاريات : ٤٤ . والصاعقة تحدث صوتاً عظيماً فذلك المراد بتسميتها بالصيحة ، وكانت من القوة والعِظَم أن أهلكتهم جميعاً وجعلتهم ﴿ كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ ﴾ أي أصبحوا كأغصان الشجر اليابسة التي يجمعها صانع حظيرة الدواب ليبني بها حظيرته ، وقيل : كالعظام النخرة المحترقة ، وهذا كناية عن أنهم أصبحوا نتفاً من أجساد هامدة من غير روح .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴾ ولقد سهلنا القرآن للعظة والاعتبار ، فهل من متعظ ؟

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

شرح المفردات

حَاصِباً : ريحاً ترميهم بالحصى أو الحجارة .

بِسَحَر : هو ما بين آخر الليل وطُلوع الفجر .

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا : ولقد حذّرهم بطش الله وعقابه .

فَتَمَارَوْا بِالنُّذُر : فشكُّوا بالإنذار والوعيد .

رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ : طلبوا منه أن يمكنهم من ضيوفه لفعل الفاحشة بهم .

فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ : أعماهم الله ، وصيّر أعينهم كسائر الوجه لا يُرى لها أثر .

صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً : جاءهم في الصباح الباكر .

عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ : عذاب دائم متصل بعذاب الآخرة .

فِي الزُّبُر : في الكتب السماوية أو في اللوح المحفوظ .

بِآيَاتِنَا : بمعجزاتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق نبوة أنبيائنا .

نَحْنُ جَمِيعٌ : نحن جمَاعة ، أو يد واحدة على من خالفنا .

سَيُهْزَمُ الجَمْعُ : سيهزم جمع كفّار مكة .

ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

شَرح المفـرَدات

يُوَلُّونَ الدُّبُرَ : يفرون منهزمين .

السَّاعَةُ أَدْهَى : أي القيامة أفظع . وأشد من الداهية ، وهي الأمر العظيم .

أَمَرُّ : أي أشد مرارة من القتل والأسر .

سُعُر : عناء ، أو نيران مسعّرة .

مَسَّ سَقَرَ : عذاب جهنم .

خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ : خلقناه بتقدير سابق ، أو بمقدار .

إلَّا وَاحِدَةٌ : كلمة واحدة هي « كن » .

أَشْيَاعَكُم : أمثالكم في الكفر وأشباهكم .

الزُّبُر : كتب الحفظة من الملائكة أو في اللوح المحفوظ .

مُسْتَطَر : محفوظ مكتوب .

مَقْعَدِ صِدْقٍ : مكان مرضي عنه ، ومجلس حق وهو الجنة .

مقتدر : قادر على كل شيء .

تَابِع سُورَة القَمَر

وبعد الكلام عن ثمود ينتقل القرآن إلى الكلام عن قوم لوط الذين كان موطنهم في الأردن في مدينة سدوم[١] ، وكان أهل هذه المدينة من أفجر الناس وأكفرهم ، يقطعون الطرق للسلب ويأتون في ناديهم المنكر ، وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي الشذوذ الجنسي ، ونعني بهذه الفاحشة : إتيان الذكور بدل الإناث « اللواط » فأرسل الله نبيه لوطاً لهدايتهم وتحذيرهم من سوء أفعالهم ، فكذبوا نبيهم ، وهددوه بإخراجه من قريتهم .

وحدث أن بلغ قوم لوط نبأ نزول ضيوف حسان على لوط ، فأسرعوا إلى بيته لينالوا غايتهم الدنيئة من ضيوفه بالإكراه ، حاول لوط إقناع قومه بالعدول عما عزموا عليه ولكنه لم يفلح ، وعندما اشتد الأمر وأصروا على لقائهم خرج إليهم أحد الضيوف الذين كانوا في الحقيقة ملائكة في صورة البشر ، وقيل إن الذي خرج إليهم هو جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست ، وفقدوا أبصارهم ، فتبدد شملهم ، ورجعوا من حيث أتوا يتلمسون الطريق ، ثم كشف الملائكة حقيقة أمرهم للوط ، وأخبروه عن سبب مجيئهم وهو إهلاك قومه الذين تمادوا في كفرهم وفحشهم ، وأمروه بمغادرة القرية مع أهله بدون امرأته لأنها ساء عملها ، وأن موعد إهلاكهم هو الصباح . ولما حلّ العذاب الذي قدّره الله وقضاه لقوم لوط ، قلب بهم الأرض التي كانوا يعيشون فيها وجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم في أثناء ذلك حجارة من طين متحجّر .

هذا ملخّص ما جاء في القرآن عن قوم لوط الذي وَرَدَ ذكرهم في القرآن في عدة سور وفي أساليب شتى وقد أوردنا هذا الملخص لنلقي الضوء على ما جاء في هذه السورة عنهم بإيجاز كما نراه في الآيات التالية :

---

(١) لم يسم القرآن اسم القرية وهذه التسمية جاءت في العهد القديم .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ . نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ . وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ . وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ . فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (٣٣ ـ ٤٠) .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ أي كذبت قوم لوط بإنذارات نبيهم الذي حذّرهم بحلول العذاب بهم إن استمروا على فعل الفواحش والمنكرات .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ أي عاقبهم الله بإرسال ريح تحمل الحصى ، وكان ذلك بعد أن خسف القرية بهم حتى هلكوا باستثناء آل لوط وهم ابنتاه فقط ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ والسَحَر هو آخر الليل قبل طلوع الفجر . فلوط وابنتاه كانوا خارج القرية في هذا الوقت وبهذا نجوا من الهلاك .

﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أي أنعم الله على لوط وابنتيه بالنجاة كرامة لهم منه ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ وهكذا يجزي الله من شكر نعمته بالإيمان والطاعة فينجيه من العذاب ومن كل سوء .

﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴾ أي ولقد خوفهم لوط عقوبة الله الشديدة ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ فارتابوا وكذبوا بالإنذار والوعيد ولم يصدّقوه .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ ولقد أراد هؤلاء القوم من لوط تمكينهم من ضيوفه لفعل الفاحشة كما هو دأبهم ، وكان هؤلاء الضيوف ملائكة بصورة فتيان .

﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أي أذهب الله أعينهم ، وجعلها ممسوحة لا يُرى لها

شق فلم يعودوا يرون شيئاً .

﴿ فَذُوقوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي ذوقوا بهذا العمى مقدمات عذاب الله وإنذاراته .

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أي أتاهم صباحاً عذاب ثابت دائم لا يقدر أحد على إزالته .

﴿ فكَيْفَ كَانَ عَذابي ونُذُرِ ﴾ فعلى أي حال كان عذابي وإنذاري للمخالفين أمري ؟ لقد كانا شديدَيْن مريعيْن لا يحيط بهما الوصف .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ ولقد سهلنا القرآن للعظة والاعتبار فهل من متعظ بمواعظه .

هذا هو العقاب الإلٓهي الذي حَلّ بقوم لوط بيّنه القرآن ليحذر كل من يسلك مسلكهم فيصيبه مثل ما أصابهم .

فاللواط فاحشة من أقبح الفواحش لأنه خروج عن الناموس الكوني ، فالحياة واستمرارها لا تقوم إلّا على الذَّكَر والأنثى ، ومن اتحادهما بالزواج تنشأ الحياة . أما اتصال الذكور بالذكور فهو عمل مضاد لناموس الطبيعة وقضاء على الأسرة التي هي عماد المسؤولية والعطف والرحمة . ولما كانت الشرائع السماوية قد أُنزلت لخير الإنسان فقد حرّمت اللواط ، واستحق قوم لوط أن يُبَادوا من الأرض لأنهم خرجوا على الناموس الكوني[1] .

وبعد ذكر ما حل بقوم لوط انتقل القرآن إلى بيان ما حلَّ بقوم فرعون بسبب

(١) طالعتنا الأخبار العلمية مؤخراً أن مرض (الإدز) الذي يضعف المناعة الجسدية ويقود المصاب به إلى الموت السريع ، وينتشر بالعدوى ، إنما يصيب الذين يمارسون هذا النوع من الشذوذ الجنسي .

كفرهم بكلمات قليلة ، هذا مع العلم أن قصة موسى مع فرعون وقومه من أكبر القصص تفصيلاً في القرآن والتي جاء تردادها في سُورٍ شتى ، أما في هذه السورة ففيها تلميح عنهم وإشارة إلى هلاكهم بسبب طغيانهم في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ . كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ (٤١ ـ ٤٢) .

والمعنى : ولقد جاء فرعون وقومه إنذار من الله لهم بالعذاب والهلاك إن استمروا على كفرهم فكذّبوا بكل ما جاء على يد نبيهم موسى من المعجزات التي تشهد بصدق نبوته ، ولم يؤمنوا بما جاء به من الهدى ، فعاقبهم الله على كفرهم عقوبة شديدة ، وهو الغالب في الانتقام ، القادر على ما يريد ، غير عاجز ولا ضعيف .

وبعد هذا الحديث عن الأمم السابقة وما حلّ بها من الهلاك بسبب كفرها وتكذيبها لأنبيائها ، أخذ القرآن يربط بين الكفار من الأمم السالفة ، وبين الكفار من قوم محمد ، متوجهاً إليهم بالسؤال ، سؤال إنكار وتقريع :

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ . أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ (٤٣ ـ ٤٦) .

اي أأنتم يا كفار قريش أقوى من أولئكم الأقوام السابقين الذين أُهلكوا ، وأحسن حالاً منهم ، أم لكم براءة من العذاب ، وصك من الأمان مسجّل ﴿في الزُّبُرِ ﴾ أي في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ، أم يقول هؤلاء الكفار ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ أي نحن جمع كثير متفقون فلنا الانتصار على محمد . وهنا يردُّ الله على ادعاءاتهم : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُر ﴾ أي سيُهزم جمع المشركين ويولون الأدبار فارين منهزمين .

هذه الآية التي تعلن انهزام المشركين هي معجزة للقرآن تشهد أنه وحيٌ إلهي ، فهذه الآية نزلت في مطلع الدعوة الإسلامية حين كان المسلمون قليلين مُستضعَفين مُضطهَدين من كفار قريش الذين كانوا يفوقونهم عدّة وعدداً . فالقرآن يتنبأ بمصير طغاة قريش ، وأنهم سينهزمون على يد المسلمين ، فما هي إلّا فترة وجيزة على نزول هذه الآية حتى انتصر المسلمون في معركة بدر على طغاة قريش انتصاراً ساحقاً .

وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله قال وهو في قبة يوم بدر : اللهم إني أَنْشُدُك[1] عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ[2] ، اللهم إن تشأ لا تُعبد بعد اليوم . فأخذ أبو بكر بيده فقال : حَسْبُك يا رسول الله ألححت[3] على ربك ،فخرج رسول الله وهو يثب في الدِّرع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدُّبُر ﴾ . فهذا النص القرآني الذي ردّده النبي ﷺ في هذا الموقف العصيب كان يعتبره بشارة للمؤمنين وتطميناً لهم من الله بالنصر على الأعداء .

هذا وقد انهزم كفار قريش في معركة بدر هزيمة نكراء بالرغم أنهم كانوا يفوقون المسلمين في عدد الجند وكمية السلاح ، فكفار قريش كان عددهم يوم معركة بدر تسعمائة وخمسين مقاتلاً ، معهم مائة فرس ، وسبعمائة بعير محملة بالزاد والسلاح ، بينما كان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً ، وقد بلغ عدد القتلى بعد المعركة من قريش سبعين رجلاً ، وأُسر منهم سبعون آخرون ، أما قتلى المسلمين فبلغوا أربعة عشر رجلاً .

وبعد أن حَكَمَ القرآن بهزيمة المشركين عقّب على ذلك : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ

---

(١) انشدك : اطلب منك .

(٢) عهدك ووعدك : ما وعده الله به من النصر .

(٣) ألححت : بالغت .

مَوْعِدُهُمْ والسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ أي أن القيامة موعد عذاب المشركين ، وعذاب القيامة أعظم في الضر وأفظع ، وأشد مرارة من عذاب الدنيا .

ويتابع القرآن فيذكر نوع العذاب الذي يقاسيه المجرمون من الأمم السالفة والأمم اللاحقة في الآخرة :

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (٤٧ ـ ٤٨) .

فالمجرمون في ﴿ ضَلَالٍ ﴾ والضلال هو في مقابل الهداية ، وهو العدول عن الطريق المستقيم ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أي في نيران تلتهب بهم في جهنم ، حيث يُجَرُّون في النار على وجوههم ، ويقال لهم إيلاماً ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي ذوقوا حرّ النار وشدة عذابها .

وأخيراً يختم القرآن هذه السورة مبيناً قدرة الله العظيمة ، وعلمه المحيط بالكون ، وما أعد للمتقين من نعيم في الآخرة :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ . وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ (٤٩ ـ ٥٥) .

فالله سبحانه خلق كل شيء في هذا الكون ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ والقَدَر هو ما يُقدِّره الله من القضاء ويحكم به من الأمور ، والتقدير بمعنى التروية والتفكير في تسوية أمر وتهيئته ، وتأتي (قدَر) بمعنى المقدار . ويقول الطبري في تفسير الآية : إنّا خلقنا كل شيء بمقدار قدرناه وقضيناه . وهذه الآية فيها إعجاز وهي على قصرها ينطوي مضمونها على معانٍ عظيمة تشير إلى مدى قدرة الله

وتدبيره المحكم في شؤون الكون ، وسنوضح ذلك في التفسير العلمي في آخر السورة .

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ ﴾ أي وما أمر الله لشيء من الأشياء إذا أراد وجوده وتكوينه إلاّ كلمة واحدة تصدر منه وهي ﴿ كن ﴾ فيكون ذلك الشيء ويُوجد كسرعة اللمح بالبصر لا يبطىء ولا يتأخر .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أي ولقد أهلك الله أشباهكم وأمثالكم ـ يا كفار مكة ـ في الكفر من الأمم السالفة فهل من متعظ بذلك .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ الزبر : كتب الحفظة من الملائكة . فكل عمل تسجله الملائكة في كتب ليحاسب عليها الخلق يوم الحساب .

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ أي كل عمل من الأعمال صغيراً كان أو كبيراً فهو ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ أي مسطور ومكتوب بتفاصيله . وكفار مكة لا يفهمون ولا يمكن أن يتصوروا كيف يمكن أن تحصى عليهم أقوالهم التي يتلفظون بها ، أما نحن في العصر الحاضر فقد بدأنا نلمس ذلك باليد بعد أن انتشرت بيننا أجهزة التسجيل التي تسجل كل شيء من الصوت والصورة .

﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ أي إن المتقين يتنعمون في بساتين ذات أنهار .

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ أي في مكانة رفيعة عالية ، أو في مجلس حق لا ريب فيه ، عند رب عظيم قادر على كل شيء .

فالمتقون هم في نعيم الجنان ، وفي نعيم القرب من الرحمن ، وأي منزلة أكرم من تلك المنزلة ، إنها غاية السعادة التي يمكن أن يبلغها بشر .

التفسير العلمي

يقول تعالى في هذه السورة : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ أي أنه سبحانه خلق كل شيء بمقدار قدَّره وقضاه . وجاء في القرآن ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾. الرعد : ٨ .

نعم كل شيء في هذه الدنيا جعله الله بمقدار . إن نسبة الأوكسجين توجد عادة في الهواء بنسبة ٢١ بالمئة ، فلو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ بالمئة مثلاً فماذا يحدث ؟ إن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة .

والأوكسجين يستنشقه كل كائن حيواني بينما يلفظ ثاني أوكسيد الكربون الذي يبني النبات تكوينه منه ، فلو كانت هذه المقايضة غير قائمة فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأوكسجين ، ويستنفذ النبات كل ثاني أوكسيد الكربون ، وحينئذٍ يذوي النبات ويموت الحيوان .

ثم إن إشعاعات الشمس هي بمقدار ، فلو أعطت الشمس نصف إشعاعها الحالي لتجمدت المخلوقات الحية ، ولو زاد إشعاعُها بمقدار النصف لأصبح ما عليها رماداً . هذه أمثلة قليلة في هذا المجال ، ولو أردنا أن نجول في هذا الكون ، ونستعرض مخلوقات الله ، ونتأمل في ما خلقه الله بمقدار مما يدل على الحكمة الإلٓهية لاستلزم ذلك مجلدات كثيرة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾
ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ
رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ
بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا

شرح المفردات

الرَّحْمَنُ : مِنْ أسماء الله تعالى ، ومعناه الذي وسعت رحمته كل شيء .

عَلَّمَ القُرآنَ : علَّم الإنسانَ القرآنَ وَيَسَّرَ فهمَهُ .

عَلَّمَهُ البَيانَ : علَّمه النطق والإفصاح عمّا في نفسه .

بِحُسْبانٍ : أي يجريان بحساب معلوم في بروجهما ومنازلهما .

النَّجْم : معناه هنا : النبات الذي لا ساق له .

يَسْجُدانِ : ينقادانِ لله فيما خُلِقَا له .

والسماءَ رَفَعَهَا : والسماءَ خَلَقَها اللّهُ ورفعها بقدرته .

وَوَضَعَ الميزانَ : شرَعَ العدلَ وأمرَ به الخلق .

ألَّا تَطْغَوْا في الميزانِ : لئلّا تتجاوزوا العدل والحق .

بالقِسْطِ : بالعدل .

لا تُخْسِرُوا الميزانَ : لا تبخسوا الكيل والوزن .

لِلأنام : للخلائق .

فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾
وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ
ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

شـــرح المفـردَات

الأكْمام : أوعية الثمر وهي الطَّلع .

والحَبُّ : الحبوب ، كالقمح والفول والذُّرة .

العَصْف : التبن أو ورق الزرع اليابس .

الرَّيْحَانُ : كل نبت له رائحة طيبة .

آلاء : نِعَم ، جمع « ألى » .

صَلْصَال : طين يابس له صوت عند الضرب عليه .

كالفَخَّار : هو الطينُ يُحْرَقُ حتى يتحجر .

مارِجٍ : لهب النار الصافي الذي لا دُخانَ فيه .

مَرَجَ : أرسلَ .

البَحْرَيْن : البحر المالح والماء العذب .

بَرْزَخٌ : حاجز أرضي .

لا يَبْغيَانِ : لا يختلطان .

المَرْجَانُ : صغار اللؤلؤ ، وقيل هو الخرز الطبيعي الأحمر .

الجَوَارِ : السُّفن الجارية في البحر .

كَالأَعْلَام : جمع عَلَم وهو الجبل .

تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

شرح المفردات

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ : كل مَن على الأرض هالك .

وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ : أي تبقى ذات ربك .

ذو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ : صاحب العظمة والذي له الإكرام والفضل على جميع خلقه .

يَسْأَلُهُ مَنْ في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ : يحتاج إليه كل من في السماوات والأرض ويسألونه الرحمة .

كُلُّ يَوْمٍ هُوَ في شَأْنٍ : أي يغفر ذنباً ، ويفرِّج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ : سنقصد لحسابكم .

أَيُّها الثَّقَلانِ : الإنس والجن .

تَنْفُذُوا : نفذ : دخل الشيء وتجاوزه .

أقطار : النواحي والجوانب .

بِسُلْطَانٍ : بقوة وقهر .

شُوَاظٌ : لهب النار .

ونُحَاسٌ : نحاس مذاب ، أو دخان بلا لهب .

سُورَةُ الرَّحْمَن

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تعرض الدلائل الواضحة على وجود الله من خلال التأمُّل في مخلوقاته ، كما تبيّن قدرته العظيمة ، وتدبيره المحكم في هذا الكون ، وتعدُّد نِعَمَهُ التي أسبغها على الإنسان ، والتي تستوجب الخضوع له ، وشكره على هذه النِّعَمِ ، وعدم مقابلتها بالجحود والتكذيب .

ثم تندِّد هذه السورة بالمكذبين بنعم الله ، مُنذرةً إياهم بسوء المصير ، ومبينةً لهم جانباً مما سيلقونه من عذاب يوم القيامة ، كما تنوِّه بالمتقين وتبشرهم بحسن العاقبة عارضةً لنا جانباً من أنواع النعيم الذي سينالونه في الآخرة .

يستهل الله هذه السورة بقوله :

﴿ الرَّحْمَن . عَلَّمَ القُرآنَ . خَلَقَ الإنسَانَ . عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ (١ ـ ٤) .

﴿ الرَّحْمَن ﴾ اسم من أسماء الله الحسنى ، وصفة من صفاته ، وهي صيغة للمبالغة مشتقة من الرحمة ، ومعناها : ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء . والرحمة من الإنسان رقة قلبه وعطفه ؛ ورحمة الله : عطفه وإحسانه ورزقه .

ولما كانت هذه السورة تعدِّد آلاء الله على عباده ، فقد ابتدأت بأعلى مراتب الإنعام مقدِّمةً إياها على سائر النِّعَمِ ، وهي نعمة القرآن ﴿ عَلَّمَ القُرآنَ ﴾ فقد علَّم الله محمداً القرآنَ بواسطة الملك جبريل ثم علَّمه محمدٌ لأمته .

وإن في تقديم نعمة تعلم القرآن على سواها من النِّعَمِ ما يدل على أنها أعظم شأناً ، وأسمى مكانة ، حتى أنه قدَّمها على نعمة خلق الإنسان ، لأن الإنسان بدون هٰذي القرآن يعيش في تعاسة وبؤس ، وصراع مع أخيه الإنسان ، وهكذا كان شأن العرب قبل هذْي القرآن ، كانوا في صراع قَبَلي ، القوي منهم يأكل حقوق الضعيف ، وكانوا منغمسين في الفواحش والمُنكرات ، أما بعد نزول القرآن ، وأخذِهم بهديه فقد أصبحوا أمة قوية موحَّدة ، متحلية بالفضائل والآداب ، واستطاعوا أن يُسيطروا على أقوى الأمم في عصرهم ، وينشروا فيها العدل والرحمة .

﴿ خَلَقَ الإنْسانَ ﴾ فهو سبحانه أخرج الإنسان من العدم ، وسوَّاه في أحسن تقويم ، وأعطاه من العقل والحواس والمواهب ما عمَّر به الأرض ، وسخْرها لمنفعته ، هذه النِّعَم تستوجب شكر الإنسان لخالقه ، كما تستوجب منه عبادتَه وطاعته .

ومن نِعَم الله على الإنسان أنه ﴿ عَلَّمهُ البَيَانَ ﴾ وهو النعمة العظيمة التي تُميِّز الإنسان عن سائر الحيوان . والبيان الذي علَّمه الله للإنسان يشمل : تمكين الإنسان من أن يُعبِّرَ عما يخالجه من الخواطر والأحاسيس والمشاعر بواسطة الكلام ، وتمكينه أيضاً من إفهام غيره والفهمِ عنه ، ولأجل هذه الضرورة نشأت اللغات التي تتضمّن ألفاظها المعاني والمعارف والعلوم .

ولكن لننظر كيف يكون البيان بواسطة النطق ، فالنطق عملية عجيبة معقدة ، كثيرة المراحل والخطوات والأجهزة ، فالمخُّ يصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق باللفظ المطلوب ، وهنا تطرد الرئة قدراً من الهواء المختزن فيها ليمرَّ من الشُعَب إلى القصبة الهوائية ، إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة التي لا يُقاس بها أوتار أيَّة آلة صوتية صنعها الإنسان ، فيصوِّت الهواء

في الحنجرة صوتاً تُشكله حسبما يريد العقل ،ويشترك مع الحنجرة : اللسان والشفتان والفك والأسنان لصنع الصوت المراد كما يُريده العقل .

ويتابع القرآن فيذكر بعض ما خلقه الله مما يشهد بوجوده وعظمته :

﴿ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾ (٥ ـ ٩) .

﴿ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ حسبان : مصدر بمعنى الحساب ، أي أن الشمس والقمر يجريان بحساب مقدّر في بروجهما ومنازلهما لمصالح العباد . وإن في مسيرة الشمس والقمر اللذين لا يخطئان في سيرهما ثانية ولا درجة عن مدارهما ، وبُعدهما عن الأرض ما يدلّ على تقدير الله العليم الحكيم . فكل ذلك محسوب حساباً كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما في حياة الكائنات على الأرض . فلو كانت الشمس أقرب إلينا من هذا القدر المعلوم ، وزادت إشعاعها لنا بمقدار النصف لأصبحنا رماداً منذ زمن بعيد ، ولو كانت أقل مما هي عليه وأعطتنا نصف إشعاعها الحالي لكنا تجمّدنا وهلك ما على الأرض من حيوان ونبات . وكذلك القمر لو كان أقرب إلينا مما وضعه الله لكان المد الذي يحدثه من القوة بحيث أن جميع الأراضي التي تحت منسوب المياه كانت تُغمر مرتين بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها .

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ فالسماء ما يقابل الأرض وما علاها ، وَرَفْعُ الله للسماء إشارة إلى أنها مرفوعة بقدرته ، ولا ممسك لها سواه سبحانه وتعالى ، والإشارة إلى السماء لفت الأنظار إلى تناسق هذا الكون ، وعظمة القدرة الإلهية التي أبدعته ، فهذه السماء تسبح فيها ملايين المجرات ، كل مجرة تحتوي على ملايين النجوم المشتعلة ، بالإضافة إلى ما فيها من كواكب .

أما قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ فالميزان هنا المقصود به : العدل ، وقد شرعه الله في كل شيء خلقه ، بحيث جعله قانوناً عاماً ينتظم به الكون ، فكل شيء في الكون خُلِقَ بالعدل والتوازن في تكوين أجزائه بحيث لا يطغى جزء على جزء ، فكما أن كل شيء في الكون يسير بحساب دقيق وبميزان عادل ، كذلك يريد الله من عباده أن يطبقوا الميزان الدقيق العادل في معاملاتهم .

ومعنى ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ أي أن لا تتجاوزوا العدل في سائر أموركم ومعاملاتكم ، أو بمعنى : لا تظلموا في الأوزان . ﴿ وأقيموا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي اجعلوا أوزانكم قائمة على العدل والإنصاف ، ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أي لا تُنقصوا الوزن في مبيعاتكم .

وبعد أن وجَّه القرآن النظر إلى خلق السماء أردف ذلك بتوجيه الأنظار إلى خلق الأرض وما تُنبت من صنوف الفاكهة والحبوب .

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ . وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٠ - ١٣) .

فالله سبحانه خلق الأرض وأوجدها ﴿ لِلْأَنَامِ ﴾ أي للخلائق من إنسان وحيوان ، وجعل فيها أصناف الفاكهة ، والنخل[1] ﴿ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ وهي الأوعية التي يكون فيها الثمر ، وهو الطلع .

---

(١) لقد خصَّ القرآن النخل بالذكر بعد أن عمَّمَ أصناف الفاكهة لما له من فائدة كبيرة لجسم الإنسان. فبتحليل التمر كيماوياً وُجد أنه يحتوي على نسبة مرتفعة من السكريات (٧٥ في المائة تقريباً) مما يستفيد الجسم منه في إنتاج طاقة عالية وسعر حراري كبير . هذا فضلاً عن أن التمر يحوي أيضاً نسبة عالية من الكالسيوم والحديد والفوسفور التي يحتاج إليها الجسم ومقداراً من حمض النيكوتينك ، الفيتامين الواقي من مرض البلاجرا وفيتاميني (أ) و (ب) . ويحتوي على نسبة من البروتينات والدهنيات ، وكل هذه المكونات تجعل من ثمر النخل غذاء كاملاً .

كما أن في الأرض أصناف الحبوب : كالقمح والشعير والفول والذرة ليقتات منها الإنسان والحيوان . أما ﴿ العَصْف ﴾ فهو غلاف حب القمح وحطامه المعروف باسم التبن ، ونحوه في الحبوب الأخرى مما تأكله المواشي . أما ﴿ الرَّيْحَان ﴾ فهو الرزق ، وقيل كل نبات له رائحة كالورد والياسمين وما شاكلهما .

فالله سبحانه امتنَّ على الناس بما خلقه لهم من الفاكهة والنخل والحبوب لغذائهم ، والأزهار ليتمتعوا برائحتها الطيبة ، وهذه النِّعَم تستوجب : شُكر الإنسان لخالِقه ، وعدم جحود فضله والكفر بنعمه ، ولهذا يعقِّب الله على هذه النعم بقوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبان ﴾ والآلاء هي النِّعَم ، والخطاب في ﴿ تُكَذِّبَانِ ﴾ هو للإنس والجن . كما توضح ذلك الآيات التي ستأتي فيما بعد مثل ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ والمراد من تكذيب آلاء الله الكفر بالله جلَّ وعلا ، إما بإنكار كون هذه النعم منه سبحانه ، وإما بعدم شُكره على هذه النِعَمِ ، لأن الشكر من دلائل الإيمان ، كما أن عدم الشكر من علامات الكفر .

والجدير بالذكر أن القرآن ردَّد هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة تارة عقب كل نعمة يمتن الله بها على عباده ، تقريراً لهذه النعمة ، وتأكيداً لها للتذكير بها ، ودعوة لشكر خالقها وهو الله سبحانه ، والاعتراف به وعدم جحوده ، وطوراً ردّد هذه الآية عقب كل تحذير من الله على عصيانه ، ليكون الإنسان متبصِّراً عظمة خالقه فلا يغضبه ، ولا يخرج عن إرادته خوفاً من عقابه .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا ، فقال : ما لي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ، ما أتيت على قول الله

تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبان ﴾ إلاّ قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذّب ، فلك الحمد .

ويتابع القرآن فيذكر فضل الله على الإنس والجن بنعمة الإيجاد والتكوين :

﴿ خَلَقَ الإنسَان مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ . وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٤ ـ ١٦) .

فالإنسان المقصود في هذه الآية أبو البشر آدم الذي انحدر جنس الإنسان من صُلبه ، والصلصال هو الطين اليابس غير المحروق ، له صوت عند الضرب عليه ، فإذا أُحرق فهو الفخار .

أما الجان فهم عالم غير مرئي للناس مخلوقون من نار ، وقد ذكر القرآن أنهم خُلقوا من ﴿ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ أي لهب خالص لا دخان فيه ، والجن كالبشر مكلفون بالعبادة ، منهم الكفار وهم الشياطين الذين يغْوُون الناس ويدفعونهم إلى ارتكاب الشرور والآثام ، ومنهم المؤمنون .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان قدرة الله في المظاهر الطبيعية وتسييره لها :

﴿ رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٧ ـ ١٨) .

قيل المراد في الآية مشرق الشمس صيفاً وشتاءً ، ومغرباها كذلك ، وقد يكون المراد بالتثنية مطلعها في أطول يوم من السنة ، وفي أقصر يوم فيها ، وكذلك المغربان . وقيل المراد مشرق الشمس ومشرق القمر ومغرباهما وما بينهما من الموجودات قاطبة ، فهو رب الوجود كله .

والشروق والغروب يحصلان من دوران الأرض حول نفسها ، هذا

الدوران هو في نهاية الدقة بحيث لا يخطىء ثانية من الثواني ، فالكرة الأرضية تدور حول محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة ، والآن لنفترض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة عندئذٍ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات ، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في نهار واحد ، فهذا الدوران بهذه السرعة المعهودة، الذي يترتب عليه شروق الشمس وغروبها بهذا الوقت المعلوم يبيّن عظمة الله وقدرته وفضله على الناس ، وهو من آلاء الله على خلقه التي لا مجال لتكذيبها .

ثم يوجّه القرآن الأنظار إلى نِعَمِ الله على الإنسان بما سخّر له البحر والأنهار والبحيرات لمنافعه :

﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللؤلؤ والمرجَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٩ - ٢٣) .

فالله سبحانه ﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ ﴾ أي أرسلهما . والبحران هما : الماء المالح المتمثل بالبحار ، والماء العذب المتمثل بالأنهار والبحيرات ، فهما ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ أي يتجاوران ، ويمسُّ أحدهما الآخر ، فتصب الأنهار في البحار ، ولكن بين الماء المالح والعذب (بَرْزَخٌ) أي حاجز من الأرض ﴿ لا يَبْغِيَانِ ﴾ أي لا يطغى أحدهما على الآخر ، أو لا يتجاوزان حدّيهما بإغراق الناس ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللؤْلُؤُ وَالْمَرجَان ﴾ والمرجان : صغار اللؤلؤ أو هي العروق الحمر التي تطلع من البحر ويصنع منها أدوات الزينة .

ويرى بعض الباحثين[١] أن الآيات القرآنية تنطبق على محيط الخليج

(١) دكتور محمد متولي - مجلة كلية العلوم الاجتماعية - الرياض - عدد ٢ - ١٩٧٨ .

العربي حيث يكثر استخراج اللؤلؤ هناك ، وحيث وُجِدَ في الأعماق هناك عيون يندفع منها الماء العذب اندفاعاً قوياً إلى أعلى وسط الماء المالح بحيث تساعده هذه القوة في الاندفاع على تكوين البرزخ المعجزة بين الماء العذب المتدفق وبين الماء المالح ويمنع اختلاطهما ، وتعرف هذه العيون باسم الكوكبات ، ومنها يشرب الغواصون عند فراغ مياه الشراب عندهم .

واللؤلؤ من عجائب ما في البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق وهو داخل صدف من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار ، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته ، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد عجيبة النسج تكون كالمصفاة تسمح بدخول الماء والغذاء إلى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها ، وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، ولكل فم أربع شفاه ، فإذا دخلت ذرة رمل ، أو قطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ثم تتجمد مكونة لؤلؤة[1] .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان قدرة الله على الإنسان بالسفن التي ألهمه صنعها ، هذه السفن التي أصبحت اليوم من دعامة الحضارة الحديثة :

﴿ وَلَهُ الجَوَارِ المُنْشَآتُ في البَحْرِ كالأَعْلَامِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢٤ ـ ٢٥) :

الجوار : هي السفن . المنشآت : المصنوعات ، أو المرفوعات القلاع . الأعلام : جمع عَلَم وهو الجبل . فالله سبحانه يشبه السفن بالجبال من حيث الضخامة .

---

(١) عن كتاب الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل .

وقفة قصيرة عند تشبيه القرآن للسفن بالجبال ، هذا التشبيه لم يظهر على حقيقته إلاّ بعد نزول القرآن بقرون عديدة حين بُنيت السفن العظيمة عابرات المحيطات التي تسع ألوف الركاب ، وناقلات النفط العملاقة التي تحمل آلاف الأطنان ، وحاملات الطائرات ، وكل هذه بضخامتها تشبه الجبال .

إن وصف السفن بالجبال لهو نبوءة للقرآن يكشفها للأجيال التالية لأنه كلام رب العالمين . فلو كان القرآن من كلام بشر لما وُصفت السفن بهذا الوصف قبل أربعة عشر قرناً ـ عهد نزول القرآن ـ حيث لم تكن السفن توحي بهذا الوصف ، فلقد كانت السفن آنذاك شراعية صغيرة الحجم ، ولم تكن من الضخامة لِتُشَبَّهَ بالجبال كهذه السفن التي نراها اليوم بما تتصف به من الحجم الهائل والكبر المتزايد الذي يشبه الجبال فعلاً .

وبعد أن بَيّن القرآن نِعَمَ الله على الإنسان ، بيّن بعد ذلك أن مآل كل ما على الأرض هو إلى فناء :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإِكْرَامِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢٦ ـ ٢٨) .

فكل من على الأرض هالكٌ إلاّ ذات الله سبحانه ، وهذا ما ذكره القرآن أيضاً في موضع آخر ﴿ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ ﴾ القصص : ٨٨ .

فهو سبحانه ﴿ ذُو الجَلالِ ﴾ أي صاحب العظمة والكبرياء ، وهو أيضاً ذو الإكرام ، أي أنه يُكرّم عن كل شيء لا يليق به ، وقيل صاحب الإكرام لأوليائه .

هذه الآية الكريمة ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ تعلن أهم حقائق الحياة التي

يقف الإنسان أمامها خاشعاً مطأطىء الرأس ، عاجزاً . فكل مخلوق حي في هذه الدنيا مُقبل على زوال ، والموت لا يستثني أحداً على وجه الأرض مهما علت مكانته ، والخلود والبقاء لله وحده .

هذه الآية توحي بعبادة الله الباقي بعد فناء الخلق ، وعدم الاغترار بالدنيا وملذاتها الزائلة .

وهذه الآية أيضاً تقدم أعظم العزاء للذين فقدوا الأحبة ، أو أصابهم المرض المضني الميؤوس منه ، أو نالتهم الخسارة في الأموال وغيرها ، أو يقاسون الظلم والطغيان ، فكل شيء في هذه الدنيا مصيره الزوال ، والناس جميعاً يتساوون في هذا المصير .

ثم يبيّن القرآن بعد ذلك بأن كل مخلوق مفتقر إلى الله في بقائه واستمرار وجوده :

﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢٩ ـ ٣٠) .

فأهل السماوات من الملائكة يسألونه المغفرة والرحمة، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة والرحمة . فهو سبحانه ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ أي في كل ساعة ولحظة هو سبحانه في شأن من شؤون الخلق فهو يحيي ويُميت ، ويغفر ذنباً ، ويفرّج كرباً ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين ، ويُعزّ ويُذل ، ويُعطي ويمنع ، ويُشفي ويُمرِض ، لا يشغله شأن عن شأن .

وبعد أن بيّن القرآن افتقار الخلق إلى خالقهم انتقل إلى تحذير الإنس والجنّ من مغبّة عصيان ربهم :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٣١ ـ ٣٢) .

سنفرغ لكم : أي سنعمد إلى حسابكم ، وهنا وعيد من الله تعالى للخلق بالمحاسبة ، كما يقول القائل لمن يتوعّده : سأتفرّغ لك ، وليس هو فراغاً من شغل ، لأن الله لا يشغله شيء عن شيء . والثقلان : الإنس والجن ، وسمّيا بذلك لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من مخلوقات الأرض ، أو لأنهما مُثقلان بالذنوب ، أو لأنهما أُثقلا بالتكاليف الشرعية .

ثم يوجّه القرآن بعد ذلك الخطاب إلى الإنس والجن مبيّناً عجزهما ، وأن قدرتهما محدودة في ملكوت الله .

﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ إِن اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوات وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ ونُحاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٣٣ ـ ٣٦) .

فمعنى سلطان : المُلْك . وقيل : هو القوة الغالبة التي يتسلط صاحبها على الأمر . وقيل : الحجة .

قيل إن هذه الآيات خطاب للإنس والجن يوم القيامة والمعنى : إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هاربين من عقاب الله فارين من عذابه فافعلوا ، وأنتم لا تقدرون على الخلاص إلاّ بمُلْكٍ وليس لكم مُلْكٌ لأنكم حيثما توجهتم كنتم في ملكوت الله وسلطانه . يصب عليكما أيها العاصون من الإنس والجن نار ونحاس مذاب فلا تقدرون على دفع هذا العذاب .

وقيل في تفسير هذه الآيات ما نقله ابن جرير عن ابن عباس : إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلاّ بسلطان يعني البينة من الله .

هذا التفسير الأخير يتسع لقبول فكرة غزو الفضاء والوصول إلى القمر وبقية الكواكب الأخرى في مجموعتنا الشمسية والتي حقق الإنسان بعض الإنجازات في ذلك ، إذ وطئت قدمه أرض القمر ، واستكشف بواسطة السفن الفضائية بعض أسرار كواكب المريخ وكوكب الزهرة .

ففي قوله تعالى : ﴿ فَانْفُذُوا ﴾ إشعار أن باستطاعة الإنسان اختراق بعض نواحي السماء واختراق جوانب الأرض ، لكن هذا النفاذ يحتاج إلى سلطان ، وهو القوة التي يتسلط صاحبها على الأمر . ففي الأرض تم له ذلك بواسطة اختراع الطائرة وإحداث شبكة من الطيران ربطت العالم الأرضي بعضه ببعض .

أما في السماء فالإنجاز العلمي الذي حققه الإنسان فيها لا يزال في البداية ، وضعفه واضح ، وعجزه مكشوف ، فكل الكواكب التي تنتسب إلى المجموعة الشمسية ليست إلاّ ذرات في هذا الكون الفسيح ، فعدد النجوم والكواكب يقدر بالبلايين ، وأبعاد هذه الكواكب والنجوم مستحيل الوصول إليها ، فأبعد الكواكب السيارة وهو « بلوتو » الذي ينتسب للمجموعة الشمسية يستغرق الضوء المنبعث منه إلينا ما بين أربع ساعات وخمس ، وسرعة الضوء ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية مع أن الضوء الآتي من أقرب النجوم يستغرق بين أربع سنوات وخمس وكل نجم هو شمس كشمسنا يدور في فلكه كواكب . لقد استطاع الإنسان بواسطة الصواريخ التي لقوتها واندفاعها تستطيع حمل سفن الفضاء إلى القمر ، فالصواريخ هي القوة التي

قامت على العلم لاستكشاف بعض أسرار الفضاء .

هذا وإن القرآن استدرك وبيّن عجز الإنسان وأن قدرته لن تصل إلاّ إلى حدٍّ محدود في غزو الفضاء وهو قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ ، مِنْ نَارٍ ونُحاسٌ فلا تَنْتَصِرَان ﴾ فالإنسان لا يستطيع التوغل كثيراً في الفضاء ، فهناك نار ومعدن ذائب ودخان ، كما أن هناك شهباً ونيازك ومذنبات وأشياء أخرى تحول بينه وبين محاولاته وطموحاته .

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ

شرح المفردات

فكانت وَرْدَةً : فصارت حمراء كلون الورد الأحمر .

كالدِّهَان : تصير سائلة كالزيت .

بسِيمَاهُم : بعلامات فيهم وهي : سواد الوجوه وزرقة الأعين .

بالنَّوَاصِي : جمع ناصية وهي شعر مقدم الرأس .

حَمِيمٍ : ماء حار .

آن : البالغ أقصى الحرارة .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ : ولمن اتّقى الله من عباده فخاف قيامه بين يديه للحساب .

أَفْنَان : جمع فنن وهو الغصن ، وقيل : ألوان من الفاكهة .

فُرُشٍ : جمع فراش .

بطَائِنُهَا : جمع بطانة وهي ما يطن به الثوب من الداخل .

إِسْتَبْرق : الحرير الغليظ .

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ
وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ
حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ
فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ
قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ
رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

شرح المفردات

قاصِراتُ الطَّرْفِ : النساء اللاتي قصرن أبصارهن على أزواجهن .

لم يَطْمِثْهُنَّ : عذارى لم يتزوجهن أحد من قبل .

مُدْهَامَّتَانِ : لونهما ضارب إلى السواد من شدّة الإخضرار والريّ .

نَضَّاخَتَانِ : تفوران بالماء .

خَيْرَاتٌ حِسَانٌ : نساء فاضلات الأخلاق حِسان الوجوه .

حُور : جمع حوراء ، وهي المرأة البيضاء شديدة بياض العين مع شدة سواد الحدقة .

مَقْصُورَاتٌ : قَصَرْن أنفسهن على أزواجهن فلا يُردن غيرهم .

رَفْرَف : الفرش والبسط والوسائد .

عَبْقَرِيٌّ : الطنافس الموشاة ، وقيل إنها وصف لكل جليل نفيس نادر .

تابع سُورَة الرَّحمٰن

ثم ينتقل القرآن إلى استعراض بعض مشاهد القيامة ، وما يعقب ذلك من مشاهد العذاب للمجرمين :

﴿ فإذا انشقَّتِ السَّماءُ فكانَتْ وَرْدَةً كالدِّهَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ . فيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكذِّبَانِ . يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بالنَّوَاصِي وَالأَقْدام . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ . هَذِهِ جهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بِهَا المُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ ﴾ (٣٧ ـ ٤٥) .

أي فإذا جاء يوم القيامة تصدَّعت السماء ، واختل نظامها ، واحمرَّ لونها ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أي صارت كلون الوردة ، وقد تختلف ألوانها ولكن الأغلب عليها هو اللون الأحمر .

وتصير السماء ﴿ كالدِّهَان ﴾ أي كدهن الزيت في الذوبان من شدة الحرارة ، ﴿ فيومئذٍ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ لأن المذنبين يُعرفون بمظهرهم وهو ما يغشاهم من الكآبة والحزن ، أو سواد الوجه وزرقة الأعين[1] ، ثم يكون مصيرهم : ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنَّوَاصِي وَالأَقْدامِ ﴾ فالملائكة الموكلون بعذاب المجرمين يأخذونهم بنواصيهم : أي بشعور مقدم رؤوسهم ، كما يأخذونهم بأقدامهم فيقذفونهم في نار جهنم ، ثم يُقال لهم تقريعاً وتوبيخاً : هذه جهنم التي أُخبرتم بها فكذبتم ، إنها حاضرة تشاهدونها عياناً . ثم بعد ذلك ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ فالحميم : هو الماء الشديد الحرارة . أما آن : فهو البالغ في الحرارة أقصاه .

---

(١) جاء في القرآن : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ آل عمران : ١٠٦ . وجاء أيضاً : ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين يومئذٍ زُرْقًا ﴾ والمراد زرق الأعين .

فالمجرمون يترددون بين أمرين : بين نار جهنم فيحرقون بنارها ، وبين الماء الحار الذي يصب عليهم ، وإذا استغاثوا من النار أُغيثوا بالماء الحار .

ومجيء الآية ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ عقب آيات العذاب للمذنبين لأن آيات العذاب فيها زجر للعصاة ليرتدعوا ويتوبوا ، وفي ذلك نعمة لهم تستحق أن لا يُكذِّبوها .

وبعد أن أوضح القرآن عذاب الكفار انتقل إلى وصف نعيم المؤمنين في الآخرة :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان . ذَوَاتَا أَفْنَانٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بطائنها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٤٦ ـ ٥٩) .

أي ولمن اتقى الله من عباده فخاف ﴿ مَقَامَ رَبِّه ﴾ أي مقامه بين يديه للحساب يوم القيامة ، فأطاعه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، فله ﴿ جَنَّتَان ﴾ والجنة هي البستان ذو الشجر المثمر . وهاتان الجنتان ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ جمع فنن وهو الغصن ، ومن هذه الأغصان تُنشر الظلال وتُجنى الثمار . وفي كل واحدة من الجنتين عين جارية بالماء العذب تجري مياهها بين الشجر ، كما أن فيهما صنفين من الفاكهة : صنفاً معروفاً في الدنيا ، وصنفاً غريباً عن العباد لم يُعرف . وأهل الجنة ﴿ متكئين ﴾ أي جالسين مسندين ظهورهم أو جنوبهم على ﴿ فُرُشٍ ﴾ جمع فراش ، وتشمل الأسرّة والوسائد والبسط ﴿ بطائنها من إستبرق ﴾ أي البطانة الداخلية من حرير

سميك ، فإذا كانت البطانة بهذا الوصف والبطانة تكون عادة من قماش غير ثمين فما بالك بالظواهر ؟ ﴿ وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ أي وثمر هذين البستانين قريب التناول يناله القائم والقاعد والمضطجع . وفيهن أي في الفرش ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أي نساء حابسات عيونهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم عفافاً وطهراً ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُم وَلاَ جَانٌّ ﴾ أي هن عذارى لم يمسهن مس الزوج لزوجته أحد قبل أزواجهن لا من البشر ولا من الجن ﴿ كَأَنَهُنَّ اليَاقُوتُ وَالْمَرْجَان ﴾ والياقوت : حجر كريم صلب صاف شفاف ذو ألوان مختلفة ، وإن كان يغلب على بعضه اللون الأحمر . والمرجان : صغار اللؤلؤ . أي هذه النساء شبهت بالياقوت والمرجان في حمرة الوجه وبياض البُشرة وصفائها .

وبيّن الله سبب هذا النعيم كله بقوله :

﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإحْسَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبان ﴾ (٦٠ ـ ٦١) .

فكلمة الإحسان في الآية جاءت بمعنيين : الأول يُراد به إحسان الإنسان في عمله ، وامتثاله لطاعة ربه ، وكلمة الإحسان الثانية يُراد بها الجزاء على إحسان الإنسان في دنياه ، وهو إحسان الله على المتقين بنعيم الجنات والرضوان من الله . ويكون معنى الآية : ما جزاء من أحسن في الدنيا إلاّ أن يُحسن إليه في الآخرة .

ومن إحسان المؤمن امتثاله لجميع تعاليم دينه ، والنهوض بعبادة ربه على الوجه الأكمل مستشعراً أن الله مُطّلع عليه كما قال النبي ﷺ : « الإحسان أن تَعْبُدَ اللَّهَ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » رواه البخاري .

والإحسان بهذا المعنى يتطلّب أن يستشعر المؤمن أنه بحضرة ربه يراقبه

في كل صغيرة وكبيرة في السرّ والعلن لا يخفى عليه من أمر عباده خافية ، وهذا يستلزم الإخلاص لله والقيام بالعمل الصالح ابتغاء مرضاته ، وقد سمى الله كل ما يقدّمه المؤمن في دنياه من عمل صالح : حسنة ، يُثاب عليها في الآخرة : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُون ﴾ النمل : ٨٩ .

ويتابع القرآن فيستعرض صورة أخرى من صور النعيم أقل رتبة من النعيم السابق يستحقه أناس أقل درجة في الفضل والإيمان والعمل الصالح :

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَان . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُدْهَامَّتَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِما عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ . فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٦٢ ـ ٦٩) .

أي ولكل فرد ممن خاف مقام ربه من دون الجنتين الأوليين في الفضل : جنتان ، أي بستانان في الجنة ، والجنة دار النعيم في الآخرة . وهاتان الجنتان ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أي خضراوان من الريّ ، وقيل خضراوان تميل خضرتهما إلى السواد لأن الاخضرار إذا اشتد مال لونه إلى السواد ﴿ فيهما عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ في هاتين الجنتين عينان فوارتان بالماء من غير انقطاع ﴿ فيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ والفاكهة هي كل ما يتفكه ويتلذذ به من الثمار ، وتخصيص النخل والرمان بالذكر وهما من الفاكهة لمزيد نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه .

ويتابع القرآن ذكر ما احتوت عليه هاتان الجنتان الأخيرتان من أنواع النعيم :

﴿ فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسَانٌ . فَبِأَيِّ آلاءِ ربكما تُكَذِّبَانِ . حُورٌ مَقْصُورَاتٌ في الخِيَام . فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ . لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُم وَلاَ جانٌّ . فَبِأَيِّ

آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٧٠ - ٧٧) .

أي وفي هاتين الجنتين ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ أي نساء فاضلات الأخلاق حِسان الوجوه ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ ﴾ حور : جمع حوراء وهي المرأة النقية البياض ، الشديدة بياض العين الشديدة سواد الحدقة ، ومعنى مقصورات : أي قُصرن على أزواجهن فلا يبغين بهم بدلاً ولا يرفعن أنظارهن إلى غيرهم من الرجال فهن يحببن أزواجهن حباً يشغلهن عن النظر إلى غيرهم ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ أي لم يمسّهن مسّ زواج قبل هؤلاء الذين يخافون ربهم أي بشر أو جانّ ﴿ متكئين على رفرف خضر ﴾ جالسين متمكنين في مجالسهم على بسط خضر أو متكئين على وسائد خضر ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ عبقر : تعني في الأصل موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن وينسب إليه كل فائق جليل تعجبوا من حذقه أو من جودة صنعه ، وكل نادر من فرش أو ثياب أو بسط موشاة . ومعنى حسان : حسنة المنظر .

وبعد أن استعرضت السورة نعم الله في الدنيا والآخرة تختتم بتقديس الخلاّق العظيم .

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (٧٨) .

تبارك ، تأتي بمعنى : تَقَدَّسَ ، وَكَثُرَ خيره وفضله ، فهو سبحانه ذو الجلال ، والجليل : العظيم القدر ، ووصفه سبحانه بذلك الوصف إما لخلقه جميع الأشياء المستدلّ بها على وجوده ، أو لأنه يُجَلُّ عن الإحاطة به ، أو أن يُدرك بالحواس . وهو سبحانه ذو الإكرام أي الخليق بالحمد والشكر والثناء ، أو أنه ذو الإكرام أي المكرم لأوليائه وأصفيائه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾
إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً
مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾
وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾
أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ

شرح المفردات

وَقَعَتِ الوَاقِعَة : قامت القيامة ، والواقعة من أسماء القيامة .

خافِضَةٌ رَافِعَة : خافضة للكفار رافعة للمؤمنين .

رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا : حُركت تحريكاً شديداً .

بُسَّتِ الجِبَال بَسًّا : فُتّت الجبال تفتيتاً .

هَبَاءً مُنْبَثًّا : غباراً متفرقاً منتشراً .

أزْواجاً : أصنافاً .

والسَّابِقون السَّابِقون : المسارعون إلى الإيمان والتوبة وأعمال البرّ .

أُولئِكَ المُقَرَّبون : المقربون عند الله الذين نالوا حظوة عنده ورُفعت مراتبهم .

ثُلَّة : جماعة كثيرة من الناس .

الأَوَّلين : الأمم الماضية .

مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن
مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ
﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ
ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾

شَـرح المفـردَات

سُرُر مَوْضُونَةٍ : مقاعد منسوجة من الذهب بإحكام .

مُتَّكئينَ عَليها مُتقابلين : يجلسون ووجوههم متقابلة .

يُطوفُ عَلَيْهم وِلْدَانٌ مُخَلَّدون : يخدمهم غلمان يبقون في نضارة الصبا لا يهرمون .

بأكْوابٍ : بأقداح كبيرة مستديرة لا عُرى لها .

مَعِينٍ : أي من خمر تجري كما تجري عيون الماء على وجه الأرض .

لا يُصَدَّعُونَ : لا يصيبهم صُداع من شربها .

ولا يُنزِفُون : لا تذهب عقولهم بالسكر .

حُورٌ : جمع حَوراء ، هي المرأة الحسناء البيضاء ، شديدة بياض العين شديدة سواد الحدقة

عِينٌ : جمع عَيناء ، وهي الواسعة العينين .

لَغْواً : الباطل والفاحش من الكلام .

تأثِيماً : كلاماً فيه إثم .

سِدْر : شجر النبق .

مَخْضُود : منزوع منه الشوك .

طَلْح منضُود : شجر الموز المرصوص المتراكم بالحمل من أسفله إلى أعلاه .

ظِلٌ ممدُودٍ : ظل دائم باق لا يزول .

وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾
وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾
عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ
ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ
﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ
مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ
أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾
قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

شرح المفردات

ماءٍ مَسْكُوبٍ : ماءٌ جارٍ لا ينقطع ، يجري في غير أخدود أو مجرى .

فُرُشٍ مَرْفُوعةٍ : نساء رفيعات القدر في الحُسن والكمال .

إنَّا أنشأناهُنَّ إنشاءً : أي خلق الله نساء الجنة خلقاً جديداً في غاية الحسن .

أبكاراً : عذارى .

عُرُباً : جمع عَرُوب ، وهي المتحببة إلى زوجها .

أتراباً : متماثلات في السن .

سَمُومٍ : الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن فتؤذيه .

حَميم : الماء الشديد الحرارة .

ولا كَريمٍ : ليس فيه خير ، أو ليس حسن المنظر .

مُتْرفينَ : متنعمين بالمحرمات ، مُقبلين على الشهوات .

الحِنْثِ العظيم : الذنب العظيم ، وهو الشرك بالله .

ميقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ : وقت يوم معلوم ، هو يوم القيامة .

سُورَةُ الوَاقِعَة

ايضــاح و دروس

القضية الأساسية التي تعالجها هذه السورة ، هي قضية الحياة الآخرة التي تأتي بعد الموت ، والدلائل العقلية على حدوثها ، وأحوال الناس فيها .

هذه الحياة الآخرة يكون أول بدئها يوم القيامة حيث يشاهد انفراط هذا الكون ، وقيام الناس من قبورهم أحياء للحساب على أعمالهم ، ثم يُساقون إما إلى نعيم أو إلى عذاب .

تبدأ هذه السورة بوصف يوم القيامة ، وذِكْر أحداث هذا اليوم مما يميزه عن غيره من الأيام ، ففيه تتبدل أقدار الناس وأوضاع الأرض . وقد سمى الله القيامة : الواقعة ، للإيذان بتحقق وقوعها ، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد . يقول تعالى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ . خَافِضَةٌ رافِعَةٌ . إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَت هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ (١ ـ ٦) .

فإذا قامت القيامة لا تكون نفس مكذِّبة بوقوعها ، وهي في وقوعها خافضة لأقوام في جهنم ، رافعة لأقوام آخرين إلى الجنة . ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ فالأرض يومذاك تُزلزل وتُحرك تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء ﴿ وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي تفتت الجبال تفتتاً ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً ﴾ فتصير غباراً ﴿ منبثًّا ﴾ متفرقاً منتشراً .

ثم يبين القرآن بعد ذلك مراتب الناس وأحوالهم يومذاك :

﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً . فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . في جَنَّاتِ النَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ (٧ - ١٤) .

وسيكون الناس يوم القيامة أصنافاً ثلاثة ، منهم صنفان في الجنة هما أصحاب الميمنة ، والسابقون ، والصنف الثالث يكون في النار وهم أصحاب المشأمة . والميمنة ناحية اليمين ، وتعني في اللغة اليُمن والسعادة ، ولذلك سمّى القرآن أهل الجنة بـ ﴿ أصحَاب اليمين ﴾ و ﴿ أصْحَاب الْمَيْمَنَة ﴾ لأنهم يأخذون كتب أعمالهم بأيمانهم .

أما الذين كفروا واستحقوا العذاب فيأخذون كتب أعمالهم بشمائلهم ، وهم الذين سماهم الله ﴿ أصْحَاب الشِّمال ﴾ و ﴿ أصْحَاب المشْأَمَة ﴾ ، والمشأمة ناحية الشمال من الشؤم الذي هو ضد اليُمن .

والاستفهام بـ « ما » عند ذكر أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة « للتعجب من حالهم ، فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال ، وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال .

أما الصنف الآخر وهم السعداء في الآخرة فهم ﴿ السَّابِقُون السَّابِقُون ﴾ قيل : هم الذين سبقوا غيرهم إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تَوانٍ » وقيل : هم السابقون إلى الهجرة والجهاد ، وإلى التوبة وأعمال البِرّ ﴿ أُولَئِكَ المقَرَّبُون ﴾ أي أولئك الذين ينالون حظوة ومكانة عند الله . والمقَرَّبون هم : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ ، وَقَلِيلٌ مِنَ الآخرين ﴾ والثلة هي الجماعة الكثيرة ، فالمراد بالأولين : الأمم الماضية الذين سبقوا عهد النبي ﷺ ، والمراد بالآخرين أمة محمد ﷺ ، وقيل : إن الأولين هم

أصحاب رسول الله ، والآخرين : هم التابعون لهم بإحسان ممن جاؤوا بعدهم على مرّ العصور .

ثم يذكر القرآن ما أُعد لهؤلاء السابقين إلى الإيمان من نعيم في الجنة :

﴿ على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ . مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ . وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يتخيَّرون . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ . جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً . إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴾ (١٥ - ٢٦) .

فالسابقون في الجنة ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ أي على مجالس منسوجة من الذهب ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِين ﴾ يجلسون متقابلين وجهاً لوجه متساوين في الرتب ، ليس أحد وراء أحد ، وهذا أدعى للسرور . ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدون ﴾ يدور حولهم لخدمتهم غلمان في نضارة الصبا لا يهرمون ولا يموتون . وهؤلاء الغلمان يطوفون ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ أي بأقداح كبيرة لا عرى لها ، وأباريق لها عرى مملوءة بخمر الجنة ﴿ وَكَأْسٍ ﴾ وهو الإناء إذا كان مملوءاً خمرةً ﴿ مِنْ مَعِينٍ ﴾ من خمر عين جارية ، والمعين هو الماء الجاري الظاهر ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْها ﴾ فهذه الخمر لا تسبب الصُداع كخمر الدنيا ﴿ وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ ولا يسكرون بشربها فتذهب بعقولهم .

وبالإضافة إلى ذلك يُقدم لهؤلاء المقربين أنواع الفاكهة فيختارون منها ما يشاؤون ، كما يقدم لهم أنواع من لحوم الطير فيتناولون منها ما تشتهيه نفوسهم .

ويقوم على إيناس هؤلاء المقربين ﴿ حُورٌ عِين ﴾ وحور :

جمع حوراء ، وهي المرأة البيضاء شديدة بياض العين مع شدة سواد الحدقة ، وعين : جمع عيناء وهي الحسناء الواسعة العينين ﴿ كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكْنُون ﴾ كأنهن في جمالهن اللؤلؤ المحفوظ في الأصداف في النقاء والصفاء ﴿ جَزَاءً بِمَا كانوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي هذا العطاء الإلّهي هو مكافأة لهم على ما قدّموه في دنياهم من عملٍ صالح . ﴿ لَا يَسْمَعُون فِيهَا لَغْواً ﴾ فهم لا يسمعون في الجنة كلاماً قبيحاً باطلاً ﴿ وَلَا تَأْثِيماً ﴾ ولا كلاماً فيه إثم أو كذب ﴿ إلّاَ قيلاً سَلاماً سَلاماً ﴾ أي لا يسمعون إلا تحية بعضهم لبعض بالسلام ، وقيل تحييهم الملائكة بالسلام .

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر ما أعد الله من نعيم لأصحاب اليمين الذين هم دون [السابقون] في الدرجة والرتبة :

﴿ وَأَصْحَابُ اليَمِينِ مَا أَصْحَابُ اليَمِينِ . في سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً . عُرُباً أَتْرَاباً . لِأَصْحَابِ اليَمِينِ . ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ (٢٧ - ٤٠) .

فأصحاب اليمين في الجنة بين أشجار وارفة ظليلة من أشجار (السدر) وهو شجر النبق وكان العرب يعجبون به لطيب رائحته ولأنه يستظل به ولكنه ﴿ مَخْضُود ﴾ أي منزوع الشوك . ولهم في الجنة ﴿ وطَلْحٍ مَنْضُود ﴾ وهو شجر الموز المتراكم بالحمل من أسفله إلى أعلاه ، ﴿ وظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ أي ظل دائم لا يزول ، ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ وماء جار دائم ينصب من العيون ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ وفاكهة لا تنقطع كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الفصول ولا يُحال بينهم وبينها أو يُمنعون من تناولها . ولأهل الجنة ﴿ فُرُش مَرْفُوعَة ﴾ أي يجلسون على فُرُشٍ وثيرة عالية القدر والرتبة .

وقيل المراد بالفرش : نساء رفيعات القدر في الحسن والكمال . ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ أي خلق الله نساء الجنة خلقاً جديداً في غاية الحسن ، قيل المراد بذلك نساء الدنيا المؤمنات اللاتي كُنَّ في سن الشيخوخة فيعيدهن الله إلى حال الشباب وكمال الجمال . ﴿ فَجَعَلْنَاهن أَبْكَاراً ﴾ أي جعلهن الله عذارى ﴿ عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ أي متحببات إلى أزواجهن ، وجميعهن في عمر واحد . وكل هذا النعيم أعدَّه الله ﴿ لِأَصْحَابِ اليَمِينِ ﴾ وهم ﴿ ثُلَّةٌ من الأوّلين ﴾ جماعة من الذين مضوا قبل أمة محمد ﷺ ﴿ وَثُلَّةٌ من الآخِرين ﴾ وجماعة من أمة محمد ﷺ .

وبعد أن ذكر القرآن أحوال أهل النعيم انتقل إلى ذكر أحوال أهل الشقاء في الآخرة :

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ كانوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ على الحِنْثِ العَظِيمِ . وَكَانوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ (٤١ ـ ٤٨) .

فأصحاب الشمال تلفحهم ريح حارة تدخل مسامَّ البدن ، وهي التي تسمى ﴿ سموم ﴾ وإذا احتاجوا إلى ماء يبل ظمأهم فماؤهم متناهٍ في الحرارة وهو المسمى ﴿ حميم ﴾ وهم أيضاً في ﴿ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُوم ﴾ أي ظل شديد السواد وهو دخان جهنم ، وتسميته ظِلاً على سبيل التهكم ، وهذا الظل ﴿ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ أي لا بارد كسائر الظلال ولا نافع لمن يأوي إليه ، ولا هو حسن المنظر كظلال أهل الجنة .

لقد استحقوا العذاب : أولاً : لأنهم كانوا قبل هذا العذاب ﴿ مُتْرَفين ﴾ والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش ، وهو المتنعّم والمتوسع في

ملاذ الدنيا وشهواتها .

ثانياً : لأنهم كانوا ﴿ يُصِرُّونَ عَلَى الحِنْثِ العَظِيمِ ﴾ أي كانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك بالله .

ثالثاً : لأنهم كانوا يقولون : ﴿ أَئِذا مِتْنا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ فهم كانوا يستبعدون أن يُبعثوا أحياء بعد أن تصبح أجسادهم تراباً وعظامهم نخرة . ﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ تأكيد للإنكار أي هل سيُبعث آباؤ نا وأجدادنا بعد أن تبلى أجسادهم .

وهنا نتساءل ما علاقة الترف بنكران الآخرة ؟ فالترف هو من أهم الأسباب التي تجعل الإنسان ينزلق في هاوية المنكرات لأن السمة الغالبة في المترفين هي إرضاء ملذاتهم وشهواتهم ، فلا يتطلعون إلى حياة أخرى يستعدون لها بالعمل الصالح والتضحية بجانب من شهواتهم .

ثم يأمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يرد على هؤلاء المنكرين للبعث :

﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ (٤٩ ـ ٥٠)

أي قل لهم يا محمد : إن الخلائق جميعاً السابقين منهم واللاحقين سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدّده الله بوقت معلوم .

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ
شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا
تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ
ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ
ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ
تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ

شرح المفردات

شَجَر مِنْ زَقُّوم : شجر قبيح المنظر ، كريه الطعم .

الهِيم : الإبل العطاش التي لا ترتوي لداء يصيبها .

هذا نُزُلُهُمْ : هذا ما أُعِدَّ لهم من الجزاء والضيافة .

يَوْمَ الدِّين : يوم الجزاء والحساب .

ما تُمْنُونَ : منيّكم الذي تصبونه في الأرحام .

قَدَّرْنَا : قضينا ، وكتبنا .

بِمَسْبُوقِينَ : عاجزين ، مغلوبين .

النَّشْأَةَ الأُولى : أي حين خَلَقكم الله أول مرّة في الدنيا .

فلولا تَذَكَّرُون : فهلّا تتذكرون ذلك وتتعظون .

مَا تَحْرُثونَ : تهيئون الأرض للزراعة وتلقون فيها الحب .

أأنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ : أأنتم تنبتونه في الأرض وتجعلونه يُخرج حبًّا وثمراً ؟

حُطاماً : ما تكسّر من الحشيش اليابس .

فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ : فظللتم تتعجبون وتحزنون على ما حلَّ بالزرع .

تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ

شــرح المفــردات

إِنَّا لَمُغْرَمُون : إننا معذبون بذهاب رِزْقنا بدون عوض .

نحنُ مَحْرُومُونَ : حُرمنا الرزق الذي كنا ننتظره .

المُزْن : السُحُب .

أُجَاجاً : شديد الملوحة .

فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ : فهلّا تشكرون نعمة الله عليكم بإنزاله الماء عذباً من السحاب

النَّارَ التي تُورُونَ : تقدحون ، تشعلون .

جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً : جعل الله نار الدنيا تذكيراً لنار جهنم .

مَتَاعاً لِلمُقْوِينَ : منفعة للمسافرين النازلين في الأرض القفر .

فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظِيم : قدّس ونزّه ربك العظيم من كل سوء .

فِي كِتَابٍ مَكْنُون : في كتاب مَصُون محفوظ عن الباطل .

مُدْهِنُون : مكذِّبون ، منافقون .

تَجْعَلُون رِزْقَكُمْ : تجعلون شُكركم على ما رزقكم الله وأنعم عليكم .

رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

شـــرح المفـــردات

أَنَّكُم تُكَذِّبونَ : تكذبون بنعمة الله ، فتضعون التكذيب موضع الشكر .

بَلَغَتِ الْحُلْقومَ : بلغت الروح الحلق عند الاحتضار .

تَنْظُرُون : تنظرون إلى المحتضر ولا تستطيعون فعل شيء له .

غير مَدِينِينَ : غير مجزيين ومحاسبين على أعمالكم .

تَرجِعُونَهَا : تعيدون الروح إلى الجسد بعدما بلغت الحلقوم .

الْمُقَرَّبِينَ : السابقين في الإيمان والعمل الصالح .

رَوْحٌ : راحة ، وقيل رحمة .

رَيْحَانٌ : الرزق في الجنة .

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ : فضيافتهم من ماء شديد الحرارة .

تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ : دخول النار ومقاساة عذابها .

الْيَقِين : هو الحق ، وقد اقتنع به الإنسان بما لا مجال للشك فيه .

تابع سُورَةِ الوَاقِعَة

ويتابع القرآن وصف عذاب أهل الشمال في الآخرة :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ . هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٥١ ـ ٥٦) .

أي إنكم أيها الضالون عن هدى الإسلام المكذّبون بالبعث وبما جاء به الرسول عن ربه أعد الله لكم في جهنم شجراً لا نظير له في الدنيا اسمه : الزقّوم ، ثمره كأنه رؤوس الشياطين في قُبح منظره وبشاعته ، ومع هذا فإنكم لآكلون من ثمر هذا الشجر الكريه الطعم ، ومالئون منه بطونكم مكرهين لما يلحقكم من شدة الجوع ، ثم إنكم لشاربون عقب أكله من الماء الحار . وشُربكم هو ﴿ شُرْبَ الهِيمِ ﴾ أي شرب الإبل العطاش التي لا ترتوي لداء يصيبها ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ والنُّزُل : الضيافة التي تقدم للضيف أول قدومه ، وتسمية « الزقوم » نزلاً إنما هو للتهكم والسخرية ، لأن النزل للكرامة ، وهذا العذاب للإهانة . ويوم الدين : هو يوم الجزاء .

وبعد أن ذكرت السورة لنا عرضاً لوقائع الآخرة انتقلت إلى ترسيخ الإيمان بالله في الإنسان ، موجهةً أنظارَه إلى بعض مظاهر قدرة الله في مخلوقاته التي هي على مرأى بصره ، ولكن لطول أُلفته لها غَفَلَ عن موضع الإعجاز فيها ، وعن عظمة القدرة الإلّهية المبدعة لها .

فمن مظاهر القدرة الإلّهية : خلق الإنسان :

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُون ﴾ (٥٧) .

ويلاحظ في هذه الآية أن الخطاب للناس فيه تلطف ورفق بالنفوس

لتقبل على الإيمان بفطرتها ، وإذا كان أمر الخلق مشاهَداً لدى الناس يرونه كل ساعة ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُون ﴾ فهلّا تصدقون بأن الله خلقكم وقيل : المراد هنا التصديق بالبعث ، فالله الذي خلق الإنسان ابتداءً على هذه الأرض قادر على إعادة خلقه حياً يوم القيامة للحساب والمجازاة .

ومن مظاهر القدرة الإلٓهية خلق منيّ الإنسان :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُم تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾ (٥٨ ـ ٥٩) .

هذا النص القرآني ظهر إعجازه في العصر الحديث بعد اختراع الميكروسكوب الالكتروني ، ووجود التحاليل الطبية الدقيقة ، فقد تبين : ان المنيّ الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة يحتوي على ١٠٠ مليون حيوان مَنَويّ في السنتمتر المكعب ، وواحدٌ فقط من هذه الحيوانات المنوية هو الذي يُلقح بُييضة الأنثى عند الإخصاب ، وهنا يبدأ تكوين الإنسان . وبعد تلقيح بُييضة الأنثى تنقسم البُييضة تباعاً إلى مجموعة خلايا تبلغ ملايين الملايين ، كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ذات خصائص تختلف عن المجموعات الأخرى ، فهذه خلايا عظام ، وهذه خلايا أعصاب ، وهذه خلايا لعمل عين ، وهذه خلايا لعمل أذن ، إلخ . . . وكل من هذه الخلايا تتوجه إلى مكان عملها إلى أن تصبح بمجموعها بشراً سويًا ، فتبارك الله أحسن الخالقين . هذا مع العلم أن الإنسان عندما يدرس علم وظائف الأعضاء ونمو الإنسان وتكوينه يجد أن كل خلية من خلايا الجسم ـ دون استثناء ـ تعرف الدور الذي تلعبه في سبيل تحقيق سلامة الجسم كله .

والسؤال المطروح هنا : من خلق هذا المنيّ الذي هو مصدر تكوين الإنسان ومنه يحصل التناسل؟ . .

هنالك ثلاثة افتراضات : الافتراض الأول أن المنيّ مِنْ خَلْقِ الإنسان ، وهذا ما عرضه القرآن الكريم ﴿ أَأَنْتُم تَخْلُقُونَهُ ﴾ وهذا استفهام إنكاري توبيخي أي ليس الأمر كذلك ولا يجرؤ أحد على قوله .

الافتراض الثاني : هو أن ذلك حصل بمحض المصادفة[1] .

الافتراض الثالث : أن ذلك مِنْ صُنْع خالق حكيم ، وهو ما ذكره القرآن ﴿ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾ .

فالافتراض الأول والثاني يرفضهما العقل بداهة ويرفضهما العلم والواقع ، فلم يبق إلا الافتراض الأخير المقبول وهو : أن المنيّ من صنع خالق حكيم وهو الله سبحانه .

ثم يتابع القرآن فيذكر مصير الإنسان بعد هذه الحياة :

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ في مَا لاَ تَعْلَمُون . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُون ﴾ ٦٠ ـ ٦٢ .

فالله سبحانه يقول : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ ﴾ أي نحن قسمنا

(١) يقول الدكتور أدوين فاست ، عالم الطبيعة : « وإذا نظرنا إلى الكائنات الحية الراقية فإننا نرى : أن من بينها ما لديه من الذكاء ما يجعله قادراً على التخطيط والابتكار والقيام بأعمال تقرب من حد الإعجاز وتحاول أن تتغلب على القوانين الطبيعية . فإذا تصورنا إن كل ذلك يتم بمحض المصادفة التي تجعل الجزئيات تجتمع بصورة معينة لكي تكوّن ذرات يتآلف بعضها مع بعض لكي تكوّن أجساماً تقوم بدورها بالتكاثر ، وأداء سائر وظائف الحياة ويكون لها عقل وتفكير ، دون أن يكون وراء كل ذلك إلّه مدبّر هو الذي خلق فصور فأبدع ، فإن ذلك لا يقبله عقل أو يتصوره فكر . وحتى إذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أخذنا بفرض مستحيل من الوجهة العلمية ، وطرحنا وراء ظهورنا فرضاً منطقياً بسيطاً الا وهو وجود الله الذي أنشأ هذا الكون وبدأه بقدرته ، فالله هو المبدىء » . (نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم) .

الموت بين الناس وقضينا به ، وحدّدنا موت كل واحد بوقت معين لا يتجاوزه ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ بعاجزين ﴿ عَلَى أن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُم ﴾ أي نهلككم ونأتي بخلق جديد يكونون أطوع لنا منكم ﴿ وَنُنْشِئَكُمْ في مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي ننشئكم خلقاً جديداً في صفات لا تعلمونها وعلى غير صوركم في الدنيا . ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولى ﴾ أي ولقد علمتم أن الله أنشأكم وخلقكم في الحياة الدنيا من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً ﴿ فلولا تَذَكَّرُون ﴾ فهلاّ تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم أحياء كما كان قادراً على خلقكم أول مرة .

ثم يبين القرآن مظهراً آخر من قدرة الله وهي إنباته للزرع الذي به قِوام حياة الإنسان والحيوان :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ . أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ (٦٣ - ٦٧) .

هذا النبات الذي ينبت ويُؤتي ثماره ، ما دوركم فيه أيها الناس ؟ إنكم تحرثون الأرض ، والحرث في اللغة : تهيئة الأرض للزرع وإلقاء البذر فيها، ثم تأخذ يد القدرة الإلّهية في عملها المعجز ؛ فلا يكفي أن تتوفر: أرض وضوء ومواد كيماوية وماء وهواء لكي ينمو النبات . إن هنالك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة فتؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة المعقدة ، والتي تعمل معاً في توافق عجيب، ثم تنتج هذه البذور والحبوب نباتاً شبيهاً بالنبات الذي جاءت منه الحبوب والبذور السابقة بنوعيته مع وراثة صفاته ، فإذا حبة القمح من نوع معين تصبح سنبلة تحمل الحب الكثير من ذلك النوع ، وإذا النواة تصبح شجرة كالشجرة السابقة

المأخوذة منها النواة[١] .

وما أكثر الحالات التي لا ينمو فيها النبات رغم ما بُذل فيه من مشقة وجهد ، فالمطر قد يشح ، وقد تهب رياح شديدة البرودة ، أو شديدة الحرارة ، أو تأتي آفات زراعية تقضي على النبات والثمر ، ولهذا يقول الله سبحانه ممتناً على الإنسان : ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ ، وليس معنى الزرع كما هو متبادر في أذهان البعض من إلقاء البذور في الأرض ، فالزرع في اللغة : الإنبات ، والمعنى : أأنتم تنبتون الحب ، أم نحن الذي ننبته فيخرج منه الحب والثمر والنبات .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ أي لو شئنا لجعلنا النبات هشيماً متكسّراً متفتتاً ﴿ فَظَلْتُم تَفَكَّهُون ﴾ تفكَّه : تعجب أو تندم ، أي فظللتم تتعجبون من سوء حاله بعد أن شاهدتموه على أحسن ما يكون ، أو تندمون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه من غير حصول نفع ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ والمغرم هو الذي ذهب ماله بغير عوض ، وقيل بمعنى العذاب ، أي تقولون : نحنُ مُعذبون وخاسرون بسبب ما حلَّ بنا ، وتضيفون قولكم : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرومونَ ﴾ أي حُرِمنا الرزق الذي كنا ننتظره .

---

(١) يقول الدكتور لستر جون زمرمان أستاذ الزراعة بكلية جوشن : « فمن الذي قدر وأوجد تلك القوانين العديدة التي تتحكم في وراثة الصفات وفي نمو النبات ؟ وسوف يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر أشد تعقيداً وأكبر عمقاً ، ومن أين جاءت النباتات الأولى ؟ أو بعبارة أخرى كيف خُلق النبات الأول ؟ ونحن لا نستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعي ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها ، أو نشأت هكذا بمحض المصادفة ، ولا بد لنا من البحث عن خالق مبدع ، ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمراً بديهياً تفرضه عقولنا علينا » . (نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم) .

ويتابع القرآن فيذكر مظهراً آخر من قدرة الله وفضله على الناس بالماء الذي ينزله لهم من السماء :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الذي تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ . لَوْ نَشاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ (٦٨ ـ ٧٠) .

فالله يخاطب الناس بقوله : أفرأيتم الماء العذب الذي تشربونه ، أأنتم أنزلتموه من المزن[١] أم نحن منزلوه لكم . ﴿ لَو نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ اي مالحاً لا يستساغ في شرب ولا يُفيد زرعاً ﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُون ﴾ فهلّا تشكرون الله على نعمه الجليلة عليكم .

وأخيراً يذكر القرآن فضل الله على الإنسان بحصوله على النار من الشجر :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ التي تُورُون . أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أم نَحْنُ الْمُنْشِئون . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ . فَسَبِّح بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ ﴾ (٧١ ـ ٧٤) .

فالنار التي استخرجها الإنسان تختزن حرارة الشمس ، وما الفحم الحجري من حيث مصدره إلاّ غابات كثيفة طُمرت في الأرض بفعل الزلازل ، وتحجّرت بمرور الزمن الطويل ، فيد القدرة الإلّهية جعلت الطاقة الشمسية مختزنة في الأشجار لينتفع بها الإنسان . وهذه النار يصفها القرآن :

---

(١) المزن هي السحب الممطرة ، وعملية الإمطار تتطلب توفر ظروف خاصة لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان أو يوفرها صناعياً مثل هبوب تيار بارد فوق آخر ساخن أو حالات عدم الاستقرار في الجو . وقد حاول الإنسان استمطار السحب صناعياً إلاّ أن هذه المحاولات لا تزال مجرد تجارب على أن الثابت علمياً أن نجاح هذه التجارب كان على نطاق ضيق جداً مع وجوب توفر بعض الظروف الملائمة طبيعياً . (المنتخب في تفسير القرآن) .

﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ أي تذكيراً لنار جهنم عند رؤيتها ، وهي أيضاً : ﴿ وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾[١] أي منفعة للمسافرين . فالمسافرون قديماً كانوا يجتازون المسافات البعيدة بواسطة الدواب ، وكانت هناك محطات للاستراحة في الأراضي المقفرة ، فيوقدون النار للإضاءة في الليل ويتدفأون بها ، ويطهون عليها طعامهم إلى غير ذلك .

وبعد تعداد نعمه تعالى يأتي الأمر بتسبيح الخالق العظيم : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ ﴾ أي نزّه ربَّك عما أضافه إليه المشركون من صفات العجز والنقص ، وقل سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته ، وسخّرها لنا بحكمته ، ما أعظم شأنه .

ثم ينتقل القرآن إلى توجيه الأنظار إلى النجوم السابحة في الفضاء ، وكان توجيهه للنظر إليها متمثلاً بالقسم بمواقعها ، والقرآن لا يقسم بشيء إلاّ تنويهاً بأهميته ، وللتأمل فيه تأملاً يظهر إبداع الخالق جل وعلا ، قال تعالى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُون عَظِيمٌ ﴾ (٧٥ - ٧٦) .

ومواقع النجوم هي مواضعها في السماء في بروجها ومنازلها . والنفي في القسم بقوله سبحانه : ﴿ لا أقسم ﴾ هو لتأكيد القسم أو أن الأمر هو من العِظَم بحيث لا يحتاج إلى قسم .

والأمر الملفت للنظر هو قوله تعالى بعد القسم بمواقع النجوم : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُون عَظِيمٌ ﴾ أي لو علمتم حقيقة النجوم ومواقعها ، لرأيتم أن القسم بها هو قسم عظيم .

---

(١) المقوين : المسافرون الذين ينزلون بالقواء وهي الأرض القفرة .

لقد نزل القرآن منذ أربعة عشر قرناً وخاطب العرب والعالم بهذا القسم العظيم في وقت لم يكن الإنسان قد اخترع المرصد (التلسكوب) ولم يكن يعلم من حقائق النجوم من حيث العدد ، والحجم ، والبعد ، شيئاً يُذكر ، ولكن اليوم بعد اختراع المرصد الفلكي ، وتطور علم الفلك تبدت للعالم عظمة الآية القرآنية التي نحن بصددها(١) .

فهذه البلايين من النجوم ومواقعها في السماء ، وتوزيعها توزيعاً منتظماً ، وتحركاتها وفق قانون معلوم بحيث لا تصطدم ببعضها لأعظم برهان على وجود الله ليس بعده برهان .

أمام هذه الحقائق عن مواقع النجوم التي أقسم الله بها ، وأمام قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عظيم ﴾ لا نملك إلا أن نقف بخشوع وإجلال أمام روعة هذا النص القرآني الذي يشهد أنه وحي إلٓهي .

وبعد ذكر القسم العظيم الذي أشرنا إلى عظمته بما كشف عنه العلم ، يأتي المقسم عليه وهو القرآن الكريم ، والقسم العظيم لا يكون إلاّ للشيء العظيم :

---

(١) قبل اختراع المرصد الفلكي كان عدد النجوم التي تتراءى لنا من مجموعتنا النجمية التي تسمى « درب التبانة » سواء منها التي تظهر في نصف الكرة الشمالي ، أو في نصف الكرة الجنوبي لا يزيد على ستة آلاف ، ولكن بعد اختراع المراصد الضخمة فإن الموقف يتغير تماماً ، فالعالم الفلكي « شايلي » يقدر عددها بـ ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم ، وقدّر عدد المجرات بما يزيد على ١٠٠ مليون مجرة كل مجرة تحتوي على ملايين النجوم . وأقصى ما توصلت إليه المراصد من رؤية مجموعات من النجوم تبعد عنا بمدى ألفي مليون سنة ضوئية . والشمس هي نجم كسائر النجوم وهي تمثل نجماً متوسط الحجم ، وهي إن تراءت لنا نجماً عظيماً فما ذلك إلاّ لقربها منا ، وهناك نجوم أكبر من الشمس بملايين المرات . وقد تبين أن مجموعتنا النجمية تدور ببطء حول محورها المركزي وكذلك المجاميع النجمية الأخرى في حالة دوران مشابهة .

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧٧ ، ٨٠) .

فهذا القرآن هو ﴿ كريم ﴾ ولفظ الكريم اسم جامع لما يُحمد ، والقرآن يُحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة ، ولما فيه من صلاح للبشر . والمراد من قوله تعالى : ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُون ﴾ أي في كتاب محفوظ مصُون من التغيير والتبديل . وهذا القرآن الكريم ﴿ لا يَمَسُّهُ إلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قيل هم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب ، وفي هذا رد على مزاعم المشركين بأن هذا القرآن تنزلت به الشياطين . وقيل : لا يجد نفعه وبركته إلاّ المطهرون ، أي المؤمنون ، وقيل : لا يمسّه إلاّ المطهرون من الجنابة ، أما مسّه على غير وضوء فقد اختلف في ذلك فأجاز البعض إذا كان المس للتعلم ومنع البعض الآخر .

﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ فهذا القرآن منزل من عند رب العالمين ، وهو الحق الذي لا ريب فيه .

وبعد كل ما تقدَّم من الآيات التي توجهت لمنكري البعث تارة بالتهويل وتارة بالإرشاد تعود الآيات لتذكِّر منكري البعث باللحظة الحاسمة بين الموت والحياة ، والموت هو أكبر قاهر للإنسان يقضي على غروره وعنفوانه ، وهو أهم باعث للإيمان بالخالق ، فأمام رهبة الموت تتفجر ينابيع الإيمان في النفس ، وهذا ما قصده القرآن هنا إذ يذكِّرُ منكري البعث برهبة الموت :

﴿ أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ أَنْتُم مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ . فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنْتُم حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُم غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٨١ ـ ٨٧) .

﴿ أَفَبِهَٰذَا الحَدِيثِ ﴾ الحديث المراد به هنا القرآن ﴿ أَنْتُم مُدْهِنُونَ ﴾ أي مكذبون ، وقيل متهاونون به غير آخذين به مأخذ الجد ﴿ وَتَجْعَلُون رِزْقَكُمْ أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تجعلون الشكر على ما رزقكم الله أن تكذبوا بنعمه عليكم فتضعون التكذيب موضع الشكر والإيمان ﴿ فَلَوْلا إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ ﴾ فهلا إذا بلغت روح الإنسان حلقه عند الموت وشارفت الخروج من جسده ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرونَ ﴾ وأنتم حينئذٍ حول المحتضر تنظرون إليه وتحرصون على إنقاذه ولكن لا تستطيعون دفع الموت عنه ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أي وربكم أقرب إلى المحتضر من أهله بعلمه وقدرته ﴿ وَلَكِنْ لا تُبْصرون ﴾ أي لا تدركون ذلك لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد[١] .

وفي هذا الجو الرهيب تأتي الآيات التالية مفحمة قاطعة لكل جدال : ﴿ فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُم غَيْرَ مَدِينين ﴾ فهنا خطاب للمنكرين بالبعث يقول الله لهم : فهلا إن كنتم غير مربوبين وغير مملوكين لله ، أو غير محاسبين ومجزيين على أعمالكم ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُم صَادِقِين ﴾ أي فأرجعوا الروح وقد بلغت الحلقوم إلى صاحبها حتى لا تذهب إلى ما ينتظرها من حساب إن كنتم صادقين في أنكم غير مربوبين وغير مملوكين لله ، ولكن هيهات أن يرجعوا الروح إلى صاحبها ؛ إذن فليعلموا أن الأمر بيد الله وحده وليؤمنوا به وليخضعوا له .

ثم تختتم السورة مشيرة إلى مصير الإنسان بعد الموت ، وفيها تذكير خاطف بأصناف الناس الثلاثة يوم القيامة الذين فُصِّلت مراتبهم في مطلع السورة .

---

(١) حبل الوريد : عرق في أعلى الرقبة يوصل الدم إلى الرأس .

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ (٨٨ ـ ٩٤) .

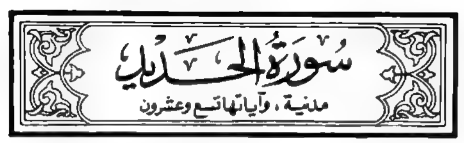
فإذا كان الميت من المقربين الذين سبق ذكرهم ـ وهم السابقون إلى الإيمان والعمل الصالح ـ فله ﴿ رَوْحٌ ﴾ أي راحة من الدنيا ، أو رحمة من الله ، أو فرح بما ينتظره من نعيم ، وله أيضاً ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ أي رزق في الجنة ﴿ وَجَنَّةُ نعيم ﴾ أي وبستان ذو تنعم .

وأما إن كان الميت من أصحاب اليمين الذين سبق ذكرهم ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمين ﴾ أي أنهم يدعون لك يا محمد ويسلمون عليك ، وقيل : سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين .

وأما إن كان من ﴿ المكذبين ﴾ بالبعث والقرآن ومن ﴿ الضالين ﴾ عن الهدى ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي تقدم ضيافة له : ماء قد تناهت حرارته ، فهو شرابه ، ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيم ﴾ أي دخول النار ليقاسي ألوان العذاب فيها .

ثم يقول تعالى :﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِين ﴾ أي أن الذي ذكره الله في هذه السورة لهو الحق الثابت الذي لا يداخله شك .

كما تجيء الآية الأخيرة﴿ فَسَبِّح باسْمِ رَبِّكَ العَظِيم ﴾مذكرة بما مرَّ في ثنايا السورة من الآيات الباهرة الدالة على عظمة الخالق المبدع ، والمعنى : نزه الله العظيم عمَّا يصفونه من الأباطيل ، وما يتفوهون به من الأضاليل .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ

شرح المفردات

سَبَّحَ لِلَّهِ : نَزَّهَ اللَّهَ عَنِ السوء وَمَجَّدَه .

العَزِيزُ : القويّ الغالب الذي لا يُنازعه في مُلكه شيء .

الحكيم : الذي يفعل أفعاله وفق الحكمة والصواب .

الأوَّل : السابق في الوجود جميع الموجودات ، فليس قبله شيء .

الآخِرُ : الباقي بعد فناء الخلق ، وليس لوجوده نهاية .

الظاهِرُ : الظاهر للعقول بالأدلّة والبراهين الدالة على وجوده .

البَاطِنُ : الذي لا تُدركه الأبصار ، ولا تصل العقول إلى معرفة كُنْهِ ذاته .

استَوى عَلَى العَرْش : إستولى على ملكوت السماوات والأرض بالتدبير والتصرف

ما يَلِجُ في الأرض : ما يدخل فيها من البذور والمياه والكنوز والموتى .

وَمَا يَخْرجُ مِنْهَا : من نبات ومعادن وغيرهما .

وما يَعْرجُ فيها : وما يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد .

فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ
وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ
وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ
يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾
هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ
وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ
مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ

شَرح المفـردَات

وهو مَعَكُمْ : وهو معكم بعلمه وتدبيره .

يُولجُ الليْلَ في النهار : يُدخل ظُلمة الليل لتحل محل ضوء النهار .

وَيُولجُ النهار في الليل : يُدخل ضوء النهار ليحل محل ظلمة الليل .

جَعَلَكُمْ مُسْتَخلفينَ فيه : جعلكم خلفاءه في التصرف في الأموال .

وَمَالَكُمْ لا تُؤمِنونَ بالله : وأي عُذرٍ لكم في عدم إيمانكم بالله .

أَخَذَ ميثاقَكُم : أخذ عليكم العهد بالإيمان .

عَبْدِهِ : أي محمد ﷺ .

آياتٍ بَيِّناتٍ : القرآن الكريم .

مِنَ الظُلُماتِ إلى النُور : من ظُلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ومالكم ألّا تنفقوا : وأي عُذرٍ لكم في أن لا تُنفقوا .

وَلِلّهِ مِيراثُ السماوات والأرض : الله يرث كل شيء فيهما ولا يَبْقى لأحد ملك

قَبْل الفَتْحِ : قبل فتح مكة .

وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ
قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ
بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ

شَرح المفردات

يُقْرِضُ اللّهَ : ينفق ماله في سبيل الله ابتغاء رضوانه .
حَسَناً : يحتسب أجره عند الله .
أَجْرٌ كَرِيمٌ : هو الجنة .
بُشْراكم : البشرى هي الخبر السار .
خَالِدِينَ فيها : ماكثين فيها أبداً .
انْظُرُونا : إنتظرونا أيها المؤمنون .
نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ : نستضيءْ بنوركم ، أو نُصِبْ منه .
ارجعوا وَرَاءكم : إرجعوا إلى الدنيا فاعملوا فيها أعمالاً صالحة .
فالتَمِسُوا نُوراً : فاطلبوا النور بالإيمان والعمل الصالح .
فَضُرِبَ بينهم بِسورٍ : فأُقيم بين المؤمنين والكافرين حاجز .
بَاطِنُهُ فيه الرحمة : أي في باطن السور وهو جهة المؤمنين : الجنة .
وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ : أي في ظاهر السور وهو جهة الكافرين : النار .

أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

شَرح المفردات

فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ : اهلكتم انفسكم بالكفر والمعاصي .

وَتَرَبَّصْتُم : إنتظرتم أن يحلّ شر بمحمد والمؤمنين .

وارْتَبْتُم : وشككتم في نبوة محمد ﷺ وفي القرآن .

وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانيُّ : خدعتكم الأماني الباطلة بانتكاس الإسلام .

الغَرُورُ : الشيطان وكل خادع .

لا يُؤخَذُ مِنْكُم فِدْيَةٌ : لا يُقبل منكم بَدَلٌ أو عوض تفدون به أنفسكم من العذاب .

مأواكُمُ النّارُ : مقامكم ومنزلكم جهنم .

هي مَوْلاكم : هي أَوْلى بكم لما أسلفتم من المعاصي .

سُورَةُ الحَدِيد

ايضــاح و دروس

في هذه السـورة يُسْبغ الله على ذاته العلية أوصافاً في غاية الكمال ، ويبيّن أنه خالق الكون ومبدعه والمتصرف فيه بما يشاء .

كما أن في السـورة دعوة للمؤمنين إلى التضحية بالنفس والمال لإعزاز دين الله ورفع منار الإسلام ، ولكي لا يتمسك البعض بالمال ويضنّ به عن الإنفاق ، يصوّر الله حقيقة الدنيا بأنها متاع زائل خدّاع ، حتى لا يغترّ بها الإنسـان .

وفي السـورة بيان عن حقيقة المصيبة والموقف الذي يجب أن يقفه المؤمن تجاهها .

كما أن في السـورة إشارة إلى معدن الحديد ، أهم عناصر حضارة العصر الحديث ، وليس غريباً أن سُمّيت هذه السـورة باسم (سورة الحديد) .

كما تتحدّث السورة عن رهبانية النصارى وتبيّن أنها بدعة ابتدعوها .

تستهل هذه السورة بقوله تعالى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١ ، ٢) .

﴿ سَبَّح لِلَّهِ ﴾ مَجَّدَ وَعَظَّمَ وَنَزَّهَ الله وبرّأهُ من السوء والنقصان . وجملة ﴿ ما في السَّماواتِ والأرْضِ ﴾ تشمل جميع الموجودات علوية وسفلية ، فجميع الموجودات تنزّه الله عمّا لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه ، وتدلّ على أنه الواحد الأحد ، المتصف بجميع صفات الكمال ، المبرّأ من سمات النقص .

والأصل في معنى سبَّح نطق بعبارة « سبحان الله » أي أبعدته الموجودات عن كل عيب ونقص وعظَّمته . فكل موجود في هذا الكون يسبح بطريقته الخاصة . ولكننا إذا كنا نفقه التسبيحات الصادرة عن الإنسان ، فإننا لا نفقه التسبيحات الصادرة عن الجماد والحيوان والطير ، والدليل على ذلك قوله سبحانه : ﴿ وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه ، وَلكِن لا تَفْقَهُونَ تَسبيحَهُم ﴾ الإسراء : ٤٤ .

فقد أثبت الله سبحانه أن لكل شيء تسبيحاً خاصاً له ، كما أثبت أننا نعلم بعضه ولا نعلم البعض الآخر .

﴿ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم ﴾ فالعزّة حَالة تمنع صاحبها من أن يُغلب ، فالله هو القويّ الغالب . وهو ﴿ الحكيم ﴾ والحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل ، وحكمة الله : معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام والإتقان .

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأرْضِ ﴾ فالله سبحانه هو المالك المتصرف بكل ما في السماوات والأرض ﴿ يُحْيي ويُميتُ ﴾ فهو خلق الحياة والموت ، يُفيض بالحياة على الميت فيحيا ، ويسلبها من الحي فيموت ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي البالغ القدرة على كل شيء .

ويتابع القرآن ذكر بعض صفات الله التي يختصّ بها دون سواه :

﴿ هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾(٣) .

فهو سبحانه ﴿ الأوّل ﴾ أي السابق في الوجود على جميع الموجودات ، وجميع الموجودات انبثق وجودها منه .

وهو سبحانه ﴿ الآخِرُ ﴾ أي الباقي بعد فناء جميع الموجودات .

وهو سبحانه ﴿ الظَّاهِرُ ﴾ أي الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة الدالة على

وجوده ، أو الظاهر فوق كل شيء بقدرته وغلبته .

وهو سبحانه ﴿ البَاطِنُ ﴾ أي المحتجب عن أبصار الخلق ، فهو سبحانه لا تدركه الأبصار ، أو المطّلع على ما بَطَنَ من الغيوب .

وهو سبحانه ﴿ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي محيط علمه بجميع الأشياء لا يغيب عنه شيء منها .

وبعد أن قرّر القرآن هذه الحقيقة الهائلة عن عظمة الخالق ، وأنه بكل شيء عليم ، جعل يفصّل ما يتفرّع عن هذه الحقيقة في عالم الوجود :

﴿ هُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في الأَرْضِ وما يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٤) .

فالله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وهذه الأيام الستة قد لا تكون من جنس أيامنا المعروفة ، فإن أيامنا هذه وُجدت بعد خلق الأرض ودورانها حول نفسها ، ولا بد أن تكون من أيام الله التي لا يعلمها إلاّ هو سبحانه . وهي مقادير من الزمن غير أيامنا المعروفة وقد جاء في القرآن : ﴿ وإنَّ يوماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدّونَ ﴾ الحج : ٤٧ .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ استوى تأتي بمعنى استولى ، أو بمعنى استقر ، والعرش في اللغة : سرير الملك الذي يجلس عليه ، ويُكنّى بالعرش عن الملك ، وتأويل ذلك : هو التصرف في الموجودات والتمكن منها مع عدم المُنازع .

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ الولوج : الدخول ، فالله يعلم ما يدخل في الأرض من كنوز وبذور وموتى ومياه ، ويعلم ما يخرج منها

من نبات ومعادن ونفط وغير ذلك . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ والعروج : الصعود ، فالله يعلم ما يصعد في السماء من ملائكة وأرواح وأعمال العباد وغير ذلك ، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم ﴾ أي أن الله معكم بعلمه وقدرته ، وقد نفى العلماء أن يكون المراد بها المعية الذاتية ، وجعلوها من قبيل التمثيل لإحاطة علم الله بجميع المخلوقات ، وعن ابن عباس أنه فسّر ﴿ وَهُوَ مَعَكُم ﴾ أي عالم بكم .

﴿ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُون بَصِيرٌ ﴾ أي رقيب على أعمال العباد مطّلع على كل صغيرة وكبيرة .

ويتابع القرآن بيان قدرة الله التي تسيِّر هذا الكون الرحيب :

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمورُ . يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٥ ـ ٦) .

فالله له السلطان المطلق ، والحكم النافذ في السماوات والأرض ، وإليه مصير جميع خلقه فيقضي بينهم بحكمه يوم القيامة .

وهو سبحانه جعل الليل والنهار يتعاقبان بحكمته وتقديره ، فيدخل كل واحد منهما بالآخر ، أو يدخل ما نقص من أحدهما في الآخر ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي عالم بالنيات الخافية في الصدور ، وبكل ما يهجس فيها من الخَواطر .

وبعد أن بيَّن القرآن مظاهر قُدرة الله في الكون وإحاطة علمه بجميع البشر توجه بالخطاب إلى الناس :

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾(٧) .

﴿ آمنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والخطاب هنا موجه إلى الناس جميعاً سواء من آمن منهم أو من لم يؤمن ، أما من آمن فيطلب منهم الثبات على الإيمان ، وأما من لم يؤمن فيدعوهم للإقرار والتصديق بالله ورسوله .

ثم تنتقل الآية إلى الدعوة للإنفاق في سبيل الله الذي هو سبيل البر والخير ونصرة الدين . ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ فهذه الآية تنبّه الناس إلى أن الأموال التي في أيديهم ليست أموالهم حقيقة ، بل هي أموال الله سبحانه خوّلهم الاستمتاع بها ، ومكّنهم من التصرّف فيها ، فهم خلفاؤه ووكلاؤه ، وهذا أمر مُسلّمٌ به ، فالإنسان يترك بعد وفاته كل ما يقتنيه للغير ، وهكذا دواليك ، وإذا كان المال هو مال الله تتداوله الأيدي ، فليس من الصواب الحرص الشديد عليه والبخل به ، وخيرٌ للإنسان أن يدّخره عند الله بالصدقة والإحسان ليكون له أجره وثوابه عند ربه يوم الحساب في الآخرة ، من أن يترك ماله كله للورثة ، أو يفنى بطارىء من الطوارىء .

وبعد دعوة القرآن للناس إلى الإيمان بالله ورسوله والإنفاق في سبيل الله توجّه باللوم والتوبيخ للكافرين الذين أعرضوا عن الإيمان :

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُون باللّهِ والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُم مؤمنين . هُوَ الذي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ وإنَّ اللّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ٨ ـ ٩) .

أي لماذا لا تؤمنون بالله أيها الناس والرسول محمد يدعوكم للإيمان ويقدّم لكم البراهين الواضحة على وحدانية الله ، وصحة رسالته ؟ ﴿ وَقَدْ أَخذ مِيثَاقَكُم ﴾ أي أخذ الله عليكم العهد بأن تؤمنوا حين وضع فيكم العقل ، وأقام لكم الأدلة الساطعة على وجوده سبحانه ﴿ إِنْ كُنْتُم مؤمنين ﴾

إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل ، فلا عذر لكم أبداً في الكفر .

فالله هو الذي نَزَّل على عبده محمد ﷺ ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي آيات القرآن الواضحات ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ ﴾ أي ليخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان . وإن الله بكم أيها الناس ﴿ لَرَؤُوفٌ ﴾ أي : رحيم بعباده : عطوف عليهم بألطافه ﴿ رَحِيمٌ ﴾ أي الذي كثرت رحمته لخلقه بأن رزقهم وأرسل الرسل لهدايتهم .

ثم يتوجّه القرآن بالخطاب للذين يبخلون بأموالهم في سبيل الله ، ويتقاعسون عن نُصرة دينه :

﴿ وَمَالَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا يستوي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(١٠) .

فالله يقول لهؤلاء موبخاً : ما الباعث لديكم على ترك الإنفاق في سبيل الله ، والله سبحانه سيرث السماوات والأرض ، والأموال صائرة إليه ، فإذا لم تُنفقوها في سبيل الله ذهبت منكم بعد موتكم دون مقابل ، فلا تنتفعون منها بشيء ، أما إذا أنفقتموها في سبيل الله فسينالكم من الله الأجر والثواب .

ثم يبيِّن الله بأنه لا يستوي في الفضل والأجر من أنفق ماله وقاتل الأعداء مع رسول الله ﴿ قَبْلِ الْفَتْحِ ﴾ أي قبل فتح مكة ، مع من أنفق ماله وقاتل بعد فتح مكة . فالذين أنفقوا وقاتلوا قبل فتح مكة أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح ، لأن الأولين فعلوا ما فعلوه عند مسيس الحاجة إلى النصرة بالأنفس والأموال ، لقلة عدد المسلمين وفقرهم يومذاك ، وكثرة أعدائهم وغناهم ، ولأنه لم يكن إذ ذاك غنائم تُنتظر ، ولا كان النصر محققاً ، فكان

الإنفاق أشد على النفس ، وكانت الحاجة إليه ملحة ، وكذلك كان شأن القتال . ومع عدم استواء فريقي المؤمنين في الأجر والثواب إلاَّ أن الله أثبت لهما ﴿ الحُسْنى ﴾ وهي الجنة ، مع تفاوت الدرجات ﴿ والله بما تَعملون خَبير ﴾ أي عليم بما تنفقون في سبيل الله فيجازيكم عليه .

ويحث القرآن المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله لأنهم سيستردونه أضعافاً :

﴿ من ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (١١) .

سمى الله سبحانه قرضاً كل ما ينفق في سبيل نصرة دينه ، وكذلك كل ما ينفق في وجوه الخير ابتغاء مرضاته . والقرض : هو الدَّيْنُ أي ما يُدفع من المال على شرط ردّه ، وفي ذلك دلالة على أن الله سيرد للمحسن ما أنفق من أموال ، وزيادة على ذلك فإن الله سيضاعف هذا البدل للمنفق مع إعطائه أجراً كريماً ، وهذا الأجر هو الجنة .

وإنما يقترض المحتاج ، والله غني عن العالمين الذي له ملك السماوات والأرض ومن فيهن ، وإنما جاء التعبير بالإقراض ترغيباً بالإنفاق وتشجيعاً للمحسنين .

وقد ذكر العلماء شروطاً في القرض الحسن الذي يقبله الله ، منها :

أن يكون المتصدّق صادق النية ، طيّب النفس يبتغي به وجه الله دون رياء ، وأن يكون المال حلالاً ، وأن لا يكون رديئاً ، وأن يُعطى للأحوج فالأحوج ، وأن يكتم الصدقة ولا يتبعها بالمنّ والأذى ، وأن لا يستكثرها وإن كانت كثيرة ، وأن تكون من المال المحبوب عنده ، وأن لا يرى لنفسه عزّة

الغنى ويرى للفقير ذلة الفقر .

وبعد أن رغّب القرآن بالإنفاق ، ووعد فاعليه بالأجر الكريم ، انتقلت آيات القرآن إلى ذكر جانب من جوانب ذلك الأجر الكريم في الآخرة :

﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِم وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ اليَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ (١٢) .

فالمؤمنون والمؤمنات يضيء نورهم بين أيديهم وعن أيمانهم ، ونورهم على قدر أعمالهم ، فهو نور الأعمال الصالحة ، ونور الهداية إلى الجنة ، ثم يُبشرون بحدائق تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا يتحولون عنها ، وهذا الخلود في الجنات هو الظفر والنجاح العظيم .

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى تصوير حال المنافقين : وهم الذين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر ، يصورهم وهم يخاطبون المؤمنين ويجري فيما بينهم هذا الحوارالمؤثر :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنَافِقُونَ وَالمنَافِقَاتُ لِلَّذِين آمنوا : انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ : ارْجِعُوا وَرَاءَكُم فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ ﴾ (١٣) .

وقد رُوي عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذٍ : انتظرونا حتى نقتبس من نوركم فإنا كنا معكم في الدنيا ، فيقول المؤمنون : ارجعوا من حيث جئتم من

الظلمة فالتمسوا هنالك النور . فضرب الله بين الفريقين بسور ، وهو حاجز بين أهل الجنة وأهل النار له باب ، وهذا السور باطنه من جهة المؤمنين رحمة وسلام وظاهره أي ما يلي المنافقين هو جهنم التي فيها العذاب .

ويتابع القرآن تتمة الحوار بين المنافقين والمؤمنين :

﴿ يُنَادُونَهُم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى ، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُم أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُم وارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حتى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ . فَاليَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ (١٤ ـ ١٥) .

فالمنافقون ينادون المؤمنين من وراء السور : ألم نكن معكم في الدنيا نعمل أعمالكم من صلاة وصيام ، فَلِمَ تمتازون علينا ﴿ قَالُوا بَلَى ، وَلَكِنَّكُم فَتَنْتُم أَنْفُسَكُم ﴾ أي قال لهم المؤمنون : نعم كنتم معنا في الظاهر ولكنكم أوقعتم أنفسكم في بلية وعذاب بسبب نفاقكم ﴿ وَتَرَبَّصْتُم ﴾ أي انتظرتم أن تدور الدائرة علينا فيضعف شأننا ﴿ وَارْتَبْتُم وَغَرَّتْكُم الأَمَانِيُّ ﴾ أي وشككتم في الدِّين وغرتكم الأماني التي كنتم تأملونها من زوال الإسلام وهزيمة المسلمين ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ الله ﴾ حتى جاءكم الموت ﴿ وَغَرَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ ﴾ أي خدعكم الشيطان وزيّن لكم النفاق بما أوقع في صدوركم من الأماني ، وبما لوّح لكم من عفو الله ﴿ فَالْيَومَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُم فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذين كَفَرُوا ﴾ فاليوم لا سبيل لكم إلى النجاة ، ولا سبيل إلى دفع الفدية التي تنجيكم من عذاب النار ولا تقبل منكم ولا من الذين كفروا ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي مقامكم ومنزلكم نار جهنم ﴿ هِيَ مَوْلاَكُمْ ﴾ فالنار أولى وأحق بكم وناصركم ، وهذا تهكم بهم ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ وبئس المرجع الذي انتهيتم إليه .

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ
عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾
إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ
وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ
وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ

شرح المفردات

ألم يَأْنِ : ألم يَحِن الوقت .

تَخْشَعَ : تلين وتتضرع وتنقاد للحق .

لِذِكْرِ الله : لمواعظ الله أو ذِكْر الله أو القرآن .

وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ : وهو القرآن الكريم .

أوتوا الكتاب : هم اليهود والنصارى .

الأَمَدُ : الأجل أو الزمان .

فاسقون : خارجون عن حدود دينهم وطاعة ربهم .

المُصَّدِّقين والمصَّدِّقَاتِ : المتصدقين والمتصدقات .

الصِّدِّيقون : الكثيرو الصدق ، وهم قوم دون الأنبياء في الرتبة .

الشُّهَدَاءُ : هم الذين قُتلوا في سبيل الله .

أصحابُ الجَحيم : أصحاب النار يلازمونها كما يلازم الصاحب الصاحب .

غَيْثٍ : مطر .

أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

شرح المفردات

الكفّار : الزرّاع .

يَهِيجُ : ييبس .

يَكونُ حُطاماً : فُتاتاً هشيماً متكسراً بعد يبْسه .

سَابِقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبكم: سارعوا إلى الأعمال الصالحة التي تُوجب مغفرة الله .

مُصِيبَةٍ : هي النائبة والشر .

كِتَاب : المراد بالكتاب هنا علم الله ، وقيل المراد به اللوح المحفوظ .

نبرأها : نخلقها .

لِكَيْلَا تأسَوْا : لكيلا تحزنوا حزن قُنوط .

لا تَفْرَحُوا : لا تفرحوا بَطَر واختيال .

مُخْتَال : متكبر .

فَخُور : المباهي بالأشياء التي تدعو إلى المفاخرة كالمال والجاه .

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ
وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن
يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ
مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً
وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ
فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ

شرح المفردات

الميزان : المراد به هنا : العدل .

ليقوم النَّاسُ بالقِسْطِ : ليتعاملوا فيما بينهم بالعدل .

وأنزَلْنا الحديد : خلقناه ، أو هيأناه للناس .

بأسٌ شديدٌ : قوة شديدة .

قَفَّيْنا على آثارهم : اتبعناهم ، وأرسلنا بعدهم .

رَأْفَةً : الرحمة الشديدة .

رَهْبَانِيَّةً : هجر الدنيا وشهواتها والتعبّد في الأديرة .

ابْتَدَعُوها : أحدثوها من عند أنفسهم .

مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهم : أي ما فرضنا عليهم الرهبنة ولا أمرناهم بها .

فما رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايتها : ما قاموا بها حق القيام .

فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

شـرح المفـردات

فاسِقُونَ : خارجون عن طاعة الله .

كِفْلَيْنِ : نصيبَيْن (اجرَيْن) .

لِئَلَّا يَعْلَمَ : ليعلم . و (لا) مزيدة للتوكيد .

ألَّا يَقْدِرُون : ألَّا ، أصلها أن لا ، والمعنى : أنهم لا يقدرون .

تَابع سُورَةِ الحَدِيدْ

وبعد أن بيّن الله حال المنافقين في الآخرة انتقل إلى تحذير المؤمنين من أن يكونوا مثل المنافقين أو مثل اليهود والنصارى في قساوة القلب والخروج عن طاعة الله :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِين آمنوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ، وَلَا يَكُونُوا كالَّذِين أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١٦) .

أي ألم يحن الوقت الذي تخشع فيه قلوب المؤمنين ، وتلين ضارعة عند ذِكْرِ الله ، الذي تفرّد بالعظمة والربوبية ، وتخشع كذلك لما نزل من آيات القرآن فتعمل بمقتضاها ، ولا يكون مَثَلُهُم مَثَل اليهود والنصارى الذين خشعت قلوبهم ورقّت عند نزول التوراة والإنجيل ، ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ولكن لما طالت المدة بينهم وبين أنبيائهم مالوا إلى الدنيا ، وأعرضوا عن مواعظ الله ، وطال عهدهم بسماع التوراة والإنجيل فزال وقعها في نفوسهم ، فكان ذلك سبباً لقسوة قلوبهم ، ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُم فَاسِقون ﴾ وكثير منهم أصبحوا خارجين عن طاعة الله ، وهذا هو المشاهد اليوم في كثير من الدول التي تعتنق المسيحية واليهودية فنرى الخروج عن طاعة الله ظاهراً في تصرفاتهم ، وقسوة القلب مهيمنة على أعمالهم .

ويلاحظ أن هذه الآية فيها عتاب رقيق مؤثّر للمؤمنين لتأخرهم عن استشعار الخشوع والاستجابة الكاملة لما أنزل الله من الحق .

ثم يُعطي الله مثلاً لتأثير مواعظ القرآن في القلب :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلون ﴾ (١٧) .

هذه الآية تصوّر تأثير ذكر الله والقرآن في القلب ، فكما أن الله يُحيي الأرض بالماء بعد جفاف زرعها ويبسه ، فكذلك القلوب القاسية التي ماتت الرحمة فيها تحيا وتلين بذكر الله وتدبر آيات القرآن الكريم ، ولقد بيَّن الله للناس الحجج الواضحة ، والدلائل الباهرة على وحدانيته ليستخدموا عقولهم ، ويتدبَّروا ما أنزل الله في القرآن من هدى .

ثم يعود القرآن لتأكيد ثواب الإيمان وإنفاق المال في سبيل الله :

﴿ إن الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ[1] وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِين آمنوا باللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقونَ[2] والشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيم ﴾ (١٨ ، ١٩) .

أي إن الذين تَصدّقوا بأموالهم على الفقراء ، والذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله وفي وجوه الخير مع الإخلاص واحتساب الأجر من الله ، يُضاعف الله لهم ثواب أعمالهم ، ولهم ﴿ أَجْرٌ كَرِيم ﴾ وهو الجنة .

والذين صدَّقوا بوحدانية الله وآمنوا برسله ﴿ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ أي في درجة الصدّيقين ، وهم الذين يلُون الأنبياء في الرتبة . وهم أيضاً في درجة ﴿ الشُّهَداء ﴾ وهم الذين قُتلوا في سبيل الله ﴿ لَهُم أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ لهم ثواب أعمالهم في الآخرة ، ولهم النور الذي ينجيهم يوم القيامة من الظلمات

---

(١) ﴿ المصَّدِّقين والمصَّدِّقات ﴾ (بتشديد الصاد) أصلها المتصدقين والمتصدقات فأدغمت التاء في الصاد بمعنى التصدق .

(٢) الصدّيق : يقال لمن كثر منه الصدق ، ويقال لمن صدق بقوله واعتقاده وعمله ، فالصدّيقون هم قوم أقل من الأنبياء درجة في الفضل والرتبة .

ويهديهم إلى الجنة ﴿ وَالَّذين كَفروا وَكَذَّبُوا بآياتِنا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحيم ﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وكذبوا بالرسل والمعجزات التي أتوا بها أو كذَّبوا بآيات القرآن أولئك هم المخلدون في النار .

ولما كان التعلق الشديد بالدنيا يصرف الناس عن بذل المال في سبيل الله والعمل بمستلزمات الإيمان جاءت الآية الكريمة التالية تصف حقيقة الدنيا بما يزهدهم فيها ، ويخفف من تعلقهم بها :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ في الأَمْوالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وفي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ (٢٠) .

لقد وصف الله الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو وزينة سواء في الملبس والمسكن ، وأنها تفاخر بين الناس في الجاه والحسب ، والمنصب ، وتكاثر في الأموال والأولاد . ولكن هذه الأمور وسرعة انقضاء نعيمها وبهجتها في حياة الإنسان مَثَلُها : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أي كمثل المطر الذي أنبت الزرع فأعجب به ﴿ الكفّار ﴾ أي الزُرّاع لأنهم يكفرون بذور النبات أي يغطونها بالتراب . ولكن مآل هذا النبات أن ينمو ﴿ ثم يَهِيجُ ﴾ أي يجف بعد خضرته وييبس ﴿ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ﴾ فيصفرّ لونه ثم يذبل ﴿ ثم يَكونُ حُطاماً ﴾ أي يصير هشيماً متكسّراً بعد اليبس .

هذا أدق تصوير لحقيقة الدنيا بألفاظ قليلة تظهر إعجاز القرآن حيث أظهرت مشهد الحياة الدنيا بهذه الصور المألوفة لدى الناس مُنهية المشهد بصورة الحطام .

هذا شأن الدنيا فما شأن الآخرة ؟ إن لها شأناً يجب أن يعمل له

حسابه : ﴿ وفي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ هذه الآية حافز للإنسان للتزود لآخرته بالعمل الصالح ، ففي الآخرة فريقان : فريق العصاة الذين اغتروا بالدنيا وملذاتها فأعرضوا عن طاعة الله فهم في عذاب شديد ، وفريق المطيعين لله فهم في مغفرة الله ورضوانه .

ويختم الله هذه الآية بقوله : ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ والمتاع كل ما انتفع به ، والغرور : الأباطيل والخداع ، فليست الحياة الدنيا إلاّ متاع باطل خدّاع يجب أن لا يغتر به المؤمن .

فالقرآن يبرز صورتين لهذه الحياة ، صورة تكون فيها الحياة مطية إلى نعيم اللهورضوانه ، وذلك إذا أخلص المؤمن في العمل ابتغاء وجه الله ، ولازم حدود الله ، ولم يتعدّها ، وشكر الله على نعمه ، وأطاع الله في أمره ونهيه .

والصورة الثانية تكون فيها الدنيا مطية إلى غضب الله وعذابه في الآخرة وذلك إذا افتخر الإنسان واختال ، وبخل بماله على المحتاجين ، واسترسل في الشهوات المحرّمة ، وتعدّى حدود الله ، وَظَلَمَ العباد ، وكفر بأَنْعُمِ الله .

وبعد أن بين القرآن حقيقة الدنيا دعا إلى التسابق إلى العمل الصالح الموصل إلى مغفرة الله والنعيم في الآخرة :

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ (٢١) .

فالتسابق ـ في نظر القرآن ـ لا يكون بالحصول على زينة الدنيا ،

والتفاخر بمقتنياتها ، والتكاثر بالأموال ، إنما التسابق المطلوب يكون بالقيام بالأعمال الصالحة الموصلة إلى مغفرة الله ودخول الجنة . هذه الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض فما بالك بطولها ، وهذه الجنة هُيئت للذين آمنوا بالله ورسله . ثم إن ما وَعَدَ الله المؤمنين من المغفرة والجنة فهو عطاء وكرم منه غير واجب عليه ، بل هو فضل منه يعطيه من يشاء ، وهو سبحانه واسع العطاء ، عظيم الفضل .

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن المصيبة بما يخفف وقعها على الأنفس :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٢٢ ـ ٢٣) .

والمراد بالكتاب هنا : علم الله تعالى ، وقيل المراد به : اللوح المحفوظ ، وهو مستودع مشيئة الله تعالى ، وكيفيته تخفى علينا .

فالله يخبرنا أن ما أصابنا من مصيبة في الأرض مما يضرنا : من قحط ، أو نقص في الثمرات ، وما أصابنا من مرض أو فقر أو موت ، أو غير ذلك ، كما أن ما أصابنا من نِعَمٍ مما ينفعنا فهي مكتوبة في اللوح المحفوظ مثبتة في علم الله ﴿ مِنْ قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا ﴾ أي من قبل أن يخلقها سبحانه ويظهرها إلى الوجود . وهذا يسير سهل على الله لإحاطة علمه بكل شيء . ولقد أعلمنا الله ذلك كي لا يشتد حزننا إذا ما أصابتنا مصيبة فادحة ، ولكي لا يدمّر الحزن نفوسنا ، بل نستقبل المصيبة بصبر ويقين ، ونعلم بأنها مقدّرة من الله ، وأنه لا بد من وقوعها .

وإذا كانت المصيبة مقدّرة من الله ، مكتوبة في اللوح المحفوظ ، فكذلك النعمة أيضاً ، وقد أخبرنا الله ذلك كي لا يشتد فرحنا عند حلول النعم فرحاً يطغينا ويبطرنا ، ولنعلم كذلك أن النِّعم مِنْ فضل الله وتَكَرُّمه على عباده ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتاكم واللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ والمختال هو المتكبر ، والاختيال يكون غالباً في الفعل ، والفخر يكون في القول :

فالله سبحانه لا يحب المتكبرين الذين يباهون الناس ويفاخرونهم ، لأن الكبر والفخر يُبعدان المرء عن تذكّر نعمة الله ، ويؤذيان عباد الله ، ومن علم أن كل شيء مقدّر له وهو مكتوب في اللوح المحفوظ ، وأن كل نعمة مصدرها من الله سبحانه توجُّه بالشكر إليه . ومن الشكر معاملة الناس بالتواضع .

ثم يتابع القرآن الكريم فيبيّن صفة هؤلاء المختالين :

﴿ الذين يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هو الغَنِيُّ الحَمِيدُ ﴾ (٢٤) .

فالذين يبخلون يعني بهم القرآن المختالين الذين سبق ذكرهم ، ذلك أن المختال الفخور يطغيه الرزق ، ويرى أن المال سبب لعزته ، لذا يحرص عليه ويبخل به ، ولا يكتفي بهذا بل يأمر غيره بالبخل ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أي ومن يعرض عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ فإن الله غني عن كل إنفاق فهو محمود على كل حال لا يضره إعراض الناس عن الإنفاق .

ثم يبين القرآن الغرض من إرسال الله للرسل إلى الناس كما يذكر فضل

الله على الناس بخلقه معدن الحديد ليقتنعوا به :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢٥) .

فالله سبحانه أرسل الرسل ﴿ بالبيِّناتِ ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة والشرائع الواضحة ﴿ وأنْزَلنَا مَعَهُمُ الكتَابَ ﴾ والكتاب المراد به جنس الكتاب ، فيدخل فيه كتاب كل رسول ، وهذه الكتب تتضمن الأحكام وشرائع الدين ، و ﴿ الميزان ﴾ والمراد به هنا العدل ، لأن الميزان هو أظهر مثل يتميّز به العدل من الظلم ، ﴿ ليقوم النَّاسُ بالقِسْطِ ﴾ والقسط هو العدل ، فالله أعطى الرسل الكتب السماوية التي فيها مقاييس العدل ليعدل الناس فيما بينهم .

ثم يبيّن الله الفائدة من معدن الحديد بقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنا الحديدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ ﴾ وأنزلنا الحديد : أي خلقنا وأوجدنا الحديد فيه بأس : والبأس هو الشدة والقوة في الحرب ، كما أن الحديد فيه ﴿ مَنَافِع للنّاس ﴾ .

هذه الحقيقة يعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرناً في وقت كان يستعمل فيه الحديد على نطاق ضيق حيث كانت تُصنع منه السيوف والحراب والسهام والدروع وبعض أدوات المنزل . أما الآن في القرن العشرين فقد وضحت منافع الحديد على أعظم ما يكون من الوضوح .

فالحديد ﴿ فيه بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ فهو أنسب المعادن لصناعة أدوات الحروب : فالمدافع على أنواعها ، والأسلحة النارية ، والدبابات ،

والقنابل ، والصواريخ ، والأساطيل البحرية تُصنع من الحديد .

وفي هذا لفتٌ لأنظار المسلمين لينتفعوا بالحديد ويُعِدُّوا منه ما يدعم قوتهم ويحافظ على سيادتهم وعزّتهم من مختلف أنواع الأسلحة اللازمة كما جاء في القرآن : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ .

والحديد فيه ﴿ مَنَافِعُ للنَّاس ﴾ فالسدود الضخمة التي تحتجز ملايين الأمتار المكعبة من المياه تُبنى بالاسمنت المسلح بالحديد ، والجسور الضخمة تبنى من الحديد ، وكذلك وسائل النقل من السيارات على أنواعها ، والقاطرات والبواخر تُصنع من الحديد ، زد على ذلك أدوات الصناعة الثقيلة والمعامل والبناء الحديث وغير ذلك قائم على الحديد ، فما أعظم نعمة الله على الإنسان بهذا المعدن[١] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي وأنزل الله الحديد ليعلم من ينصر دينه ورسله باستعمال آلات الحرب من الحديد في مجاهدة أعدائه ، وهم مؤمنون بالغيب لم يروا الله ولا الآخرة ، وإن الله قوي على الانتصار على من عاداه ، لا يقدر أحد على الانتصار عليه .

وبعد أن بيّن القرآن أنَّ الله أرسل رسله بالبينات والشرائع ، أتبع ذلك بذكر بعض هؤلاء الرسل :

---

(١) والحديد فيه منافع شتى لجسم الإنسان ، فالحديد يوجد في دم الإنسان ، وهو أحد مكونات « الهيموجلوبين » المادة الأساسية في كريات الدم الحمراء ، كذلك يوجد الحديد في الكبد والطحال والكلى والعضلات والنخاع الأحمر ، ويحتاج الجسم إلى كمية من الحديد يتزود بها عن طريق الطعام الموجود في الخضار والحبوب واللحوم ، وإذا نقص الحديد في جسم الإنسان تعرض لعدة أمراض أهمها فقر الدم ، لذلك يتناول المرضى بفقر الدم أقراص الأدوية الحاوية لمادة الحديد .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢٦) .

فالله أرسل نوحاً وإبراهيم عليهما السلام إلى قوميهما لهدايتهما ، وإبراهيم قد انتسب أليه أكثر الأنبياء ، ومن ذريته الأنبياء الذين جاءوا بالكتب الإلّهية الأربعة : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن . وإبراهيم من ذرية نوح . فالنبوة والكتب الإلّهية لم تخرج إلا من ذرّيتهما ولذلك خصّهما الله بالذكر . ﴿ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي أن بعض هذه الذرّية اهتدى بكتب الأنبياء واتبعها ، والبعض الآخر خرج عن طاعة ربه وضل سواء السبيل فخرج على الدين جملة وكفر به ، أو بقي فيه وارتكب الإثم والعصيان ، وهؤلاء كثيرون .

ويتابع القرآن فيذكر رسالة عيسى ويبين أن الرهبانية بدعة ابتدعها قومه :

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمنوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢٧) .

فالتقفية جعل الشيء في إثر الشيء على الاستمرار ، فالله سبحانه أرسل عقب نوح وإبراهيم على التتابع رسولاً بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى فأعطاه الإنجيل ، وجعل في قلوب الذين آمنوا به واتبعوه رأفة ورحمة على عباده ، وجعلهم أيضاً رحماء بينهم .

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ فالقرآن يقرّر أن الرهبانية بدعة ابتُدِعَتْ ، وليست من فروض المسيحية ، وهذا من إعجاز القرآن ، فالمسيحيون

الأوائل لا يعرفون شيئاً عن الرهبنة والأديرة . فقد نشأت الرهبنة والأديرة في مصر وعنها نُقلت إلى سائر بقاع الدنيا ، ويقترن اسم الرهبنة في مصر خلال القرنين الثالث والرابع الميلادي[1] ، فانظر أيها القارىء كيف يكشف القرآن الكريم عن هذه الحقيقة التي لا يعلمها الكثير ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ أي ما فرضنا عليهم الرهبنة ولا أمرناهم بها ولكنهم ابتدعوها طلباً لرضوان الله . أو بمعنى : ما أمرناهم إلاّ بما يُرضي الله .

﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام .

أحدث النصارى هذه الرهبانية فرعاها الأولون المخلصون حق رعايتها ، ثم خلف من بعدهم خلف تظاهروا باتباعها ، ولكنهم تركوها باطناً ، وضعفت عندهم دواعي التشدد في الطاعة فأخلّوا بما عاهدوا الله عليه ، وبما نذروا أنفسهم له من الزهد والتفرغ للعبادة ، بل أكثر من ذلك اتخذوها اللّهِ للترؤس والسؤدد وإخضاع الشعب لأهوائهم ، وعاشوا عيشة الترف والبذخ ولين العيش معرضين عن هدى الله ، وبذلك خرجوا عن طاعة الله وعلى العهد الذي ألزموا أنفسهم به وهؤلاء كثيرون كما قال سبحانه : ﴿ وَكَثِيرٌ منهم فاسِقُونَ ﴾ .

ويكفي أن تُطالع عشرات الكتب عما شاب الأديرة والرهبنة من شوائب في العصور الوسطى لتخرج بهذه النتيجة التي سجّلها القرآن عليهم : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ .

---

(١) يعتبر الأنبا أنطوني مؤسس نظام الرهبنة في العالم ، وكان مقامه في مصر وقد وضع زياً خاصاً بالنسك متخذاً إياه من زي كهنة الفراعنة ، فكان يلبس ثوباً من الكتان الأبيض وهو الزي الذي انتشر بين رهبان العالم ، وهو لم يطالب الراهب إلاّ بالصلاة والتقشف والعمل اليدوي وقصد بالتقشف العفاف التام وتوفي سنة ٣٥٦ ميلادية . أما منظم الرهبنة الجماعية فهو الأنبا باخوم المتوفي سنة ٣٤٦ م فقد وضع للرهبنة قوانين لا يزال معمولاً بها حتى الآن ، وكانت هي الأساس التي قامت عليه حياة الأديرة في أوروبا (نقلاً باختصار عن موسوعة مصر للأستاذ أحمد حسين) .

أما الذين آمنوا ورعوا ذلك العهد فقد وفّاهم الله أجرهم وذلك قبل رسالة محمد ﷺ[1] ﴿ فأتينا الذين آمنوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ .

ومعنى تلك الرهبانية التي ابتدعوها : تحمّل التكاليف الدينية زيادة على ما كُلّفوا به ، فقد زَهدوا في الدنيا ، ولزموا الخلوات ، واعتزلوا الخلق ، ولبسوا الخشن من اللباس ، واقتصروا في الأكل على الأطعمة النباتية ، وتركوا النساء ، وانقطعوا للعبادة .

وبعد ذلك انتقل القرآن إلى مخاطبة المؤمنين من كافة الملل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٨) .

قد يكون الخطاب في الآية لأهل الكتاب ـ أي اليهود والنصارى ـ طُلب إليهم تقوى الله والإيمان برسوله محمد ﷺ مع الوعد بإيتائهم نصيبين من الأجر ، نصيب على الإيمان بالأنبياء قبل محمد ، ونصيب على الإيمان بمحمد مع إيتائهم النور الذي يسعى أمام المؤمنين يوم القيامة ، هادياً إياهم إلى الجنة .

ومن الممكن أن يكون الخطاب في الآية لمن آمن بمحمد ﷺ أُمروا بالتقوى والاستمرار والثبات على الإيمان ، مع وعدهم بنصيبين من الأجر أيضاً ، نصيب على إيمانهم بمحمد ، ونصيب على إيمانهم بالأنبياء قبله ، كما وُعدوا النور والمغفرة لذنوبهم .

---

(١) أما بعد رسالة محمد ﷺ فالمطلوب الإيمان به واتباع شريعته وقد جاء في القرآن : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلام ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين ﴾ .

ويختم الله هذه السورة بقوله :

﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ (٢٩) .

﴿ لئلا يعلم ﴾ أي ليعلم ﴿ أهل الكتاب ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ ألَّا يَقْدِرُونَ ﴾ أي لا يقدرون ﴿ عَلَى شيء مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴾ أي أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئاً من فضل الله الذي تفضل به وأعطاه لأُمّة محمد وخصهم به .

فاليهود والنصارى كانوا يقولون : الوحي والرسل والكتب الإلَهية قد خصنا الله بها من بين جميع الخلق ، فرد الله عليهم بأن الله أعطى أمة محمد من الفضل والكرامة والشريعة ما لم يؤتهم ، وأن الفضل كله بيد الله يعطيه من يشاء والله صاحب الفضل العظيم .

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
التفسير الكبير للفخر الرازي .
تفسير القرآن لابن كثير .
تفسير فتح القدير للشوكاني .
تفسير زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي .
تفسير روح المعاني للألوسي .
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني .
تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .
في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .
تفسير سورة الرحمن وسور قصار للدكتور شوقي ضيف .
تفسير سورة الحديد للشيخ محمد مصطفى المراغي ـ مجلة الأزهر ـ مجلد ١٢ .
تفسير سور من القرآن للشيخ عبد الرحيم فرغل البليني ـ مجلة الإسلام ـ مصر ـ مجلد ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ .
تفسير سور من القرآن للأستاذ أحمد حسين ـ مجلة منبر الإسلام ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٢ .
صفوة التفاسير للأستاذ محمد علي الصابوني .

كلمة شكر

وفي الختام أقدم شكري للأساتذة الكرام :

الشيخ حسين غزال — الشيخ شريف سكر
الشيخ خليل الميس — مصطفى قصاص

على ما أبدوه لي من معونة وملاحظات قيمة .

كما أقدم شكري لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت على ما أسدته مطابعها والعاملون عليها من جهد وعناية ودقة في تنضيد أحرف هذا الجزء من التفسير وإخراجه بهذه الحلة الفنية الجميلة .

لهؤلاء جميعاً أسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء وأن يوفقنا سبحانه لخدمة كتابه الكريم .

كتب للمؤلف :

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن .
- روح الصلاة في الإسلام .
- اليهود في القرآن .
- الحكمة النبوية .
- الخطايا في نظر الإسلام .
- تفسير جزء عم
- تفسير جزء تبارك .
- تفسير جزء قد سمع .
- تفسير جزء والذاريات .
- تفسير جزء الأحقاف .
- تفسير جزء الشورى .

فهرس السُّوَر



هَذا التفسير

• يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر .

• يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ .

• ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغة .

• يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر اعجازه .

• يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع .

• يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى .

الموزعون الوحيدون:

دار العلم للملايين

بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥